دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

ملكــــوت الله

الأب متى المسكين

الآن نحن نعيش ملكوت اتضاع المسيح الذي لا يدركه إلا المتضعون. بنو العرس الآن منهمكون في غسل أرجل المدعوين شأنهم شأن عريسهم الذي لما جاء ليؤسس ملكوته على الأرض أسسه بالدموع وجال متغرباً يتوسل لدى سامرية أن تسقيه.

ليس الآن مكان لمتعظم، فالسيد لا يُعرف إلا بكونه يخدم، والرئيس لا يُعرف إلا كعبد، أما المتكأ الأول فلا يطلبه إلا المرفوضون.

نحن نترقب ملكوت المجد الآتي وننتظر ظهور الرب، ولكن لا ننتظره في جسد تواضعه بعد، بل في استعلان مجده وجلاله، وكل ظهور بغير هذا المجد هو خداع وغش وتزييف.

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

ملكوت اللّه

الأب متى المسكين

كتاب: ملكوت الله
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: ١٩٨٢
الطبعة الثانية: ١٩٩٢
الطبعة الثالثة: ١٩٩٣
الطبعة الرابعة: ٢٠٠٥
مطبعة دير أنبا مقار – وادي النطرون
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٠٧٢/١٥٧٢
الترقيم الدولي: ١- ٦٧- ٧٣٢٠ - ٩٧٧

المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل الأول

ملكوت الله - طبيعته

أصل كلمة «ملكوت الله» عبري ويُقرأ «ملخوت ها شَّـامَيم»، أي ملكوت السموات. ولكن القصد من هذا التعبير هو الإشارة إلى «ملكوت الله» أي حكم الله المطلق على الإنسان. وقد استُعيض عن كلمة «الله» بكلمة «السموات» تحاشياً لذكر اسم الله القدوس زيادة في خشية الله ورهبته، كعادة اليهود، كما هو حادث في إنجيل متى لأنه مكتوب لليهود. أما باقي الأناجيل فيُذكر اسم الله بلا مانع، لا بسبب قلة الخشوع وإنما بسبب كثرة الدالة والحب التي أظهرها الله نحو الأمم في شخص يسوع الفادي.

وأول من استخدم هذا التعبير في الإنجيل هو يوحنا المعمدان، ولكن مفهومه كان متداولاً في القرون الأخيرة ما قبل مجيء المسيح بواسطة الأنبياء كتعبير رؤيوي عن انتظار تدخل الله المباشر في حياة إسرائيل والعالم كله، وذلك بعد الإخفاق المرير الذي أُصيب به الأنبياء من جراء فساد سلوك الملوك والرؤساء والكهنة وبسبب فشل الشعب في اتِّباع الله من القلب، والتحقق من عدم نفع النبوات في زجر الناس.

وقد اقترن دائماً الحديث عن ملكوت الله في كتابات الأنبياء بمجيء المسيا بصفته الشخص الذي سيُعِدُّ لهذا الملكوت ويكشفه. واستعلان ملكوت الله في شخص المسيا بدأ مبكراً جداً قبل عصر الأنبياء بل وقبل عصر الملوك والقضاة، إذ نقرأ عنه منذ أيام يعقوب وهو يبارك أبناءه: «لا

يزولُ قضيبٌ من يهوذا ومُشْتَرِعٌ من بين رجليه حتى يأتي شيلُونُ وله يكون خضوع شعوب.» (تك٤٩: ١٠)، شيلون هنا هو "ملك السلام". وهذه أول إشارة إلى طبيعة المسيا وطبيعة مُلْكِه.

ومن هذا التبكير في الإشارة إلى المسيا يتضح أن غاية الله من إقامة مملكة إسرائيل هي استعلان المسيا وتأسيس ملكوت السلام لكافة الشعوب. ثم جاءت الأسفار تباعاً تحمل هذا المعنى، ولم يخْلُ سِفر من تأكيد هذه الحقيقة سواء كانت الأسفار تاريخية أو روحية، حتى جاء الأنبياء وبدأ النور الإلهي يتركز حول هذه الحقيقة بصورة ناطقة حية.

هذا كله يشير بدون غموض إلى أن تكوين مملكة إسرائيل منذ البدء قام على أساس لاهوتي. فبالرغم من التسلسل المنطقي للحوادث الزمنية وحَبْك المراحل التاريخية لإبراز مملكة إسرائيل كمملكة عاشت وماتت وقامت وسقطت عدة مرات كأي مملكة، إلا أن من وراء هذا التصوير الزمني للحوادث وسرد الوقائع التاريخية لهذه المملكة تكمن حقيقة لا يمكن تجاهلها بأي حال من الأحوال، وهي أن الله كان يقود هذه الحوادث الزمنية بنفسه سراً وعلناً، وكانت يده هي التي تصيغ الوقائع التاريخية سواء للقيام أو للسقوط وذلك من وراء الستار مرة وفي ضوء النهار وعلى مرأى من العين البشرية مرات ومرات.

كما يتضح بدون أي عناء من فحص دستور مملكة إسرائيل وشريعتها نوع هذه المملكة وطبيعتها وكيف تختلف هذه الطبيعة كل الاختلاف عن أي مملكة أخرى قامت على وجه الأرض. فمن الوصايا التي تبدأ بـ«أنا الرب إلهك»، ومن الناموس الأدبي والأخلاقي الذي أملاه الله

بفمه على الشعب، ومن الشرائع الروحية الدقيقة الأخرى التي جعلها الله دستوراً لمملكة إسرائيل، ينكشف من هو ملك إسرائيل الحقيقي وما هي هذه المملكة، وبالتالي ما الغاية من وجودها وما الغاية من فنائها!

فلم يُسمع قط في تاريخ الدول والممالك أن هناك مملكة يقوم دستورها على القداسة والبر وتتركز شرائعها في التطهير، وتتلخص أعمالها وغايتها في تقديم الذبائح، ويكون ملكها الوحيد هو الله.

ولكن إسرائيل - من واقع الحال - أخفقت أن تكون مملكة الله، وانحطت جداً عن ما هو مفروض لها، وذلك بسبب رداءة القضاة والملوك والرؤساء والكهنة وحتى شيوخ الشعب، فمشكلة إسرائيل كانت تتركز دائماً وبصورة شديدة في فساد الملك وقصور الكاهن وضعف النبي!!

لذلك بدأت الرؤيا عند كافة الأنبياء تتركز وتلتحم وتتجه إلى ملك جديد يكون له الصفات التي تمكّنه من الحكم الكامل والصالح بقوة يلزم أن تفوق قوة الإنسان! وذلك حتى تستكمل مملكة إسرائيل طبيعتها اللاهوتية التي أرادها الله لها؛ وتبلغ الغاية التي من أجلها أَوْجَدَها!

وهنا تبرز صورة المسيا في رؤيا الأنبياء واضحة كل الوضوح. وتحت هذا الإلحاح النفساني والروحاني بل والتاريخي أيضاً بدأ الأنبياء يعلنون أوصاف المسيا:

«يخرج قضيب من جذع يسَّى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب، روح **الحكمة والفهم** روح **المشورة والقوة** روح **المعرفة ومخافة الرب**. ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل **يقضي بالعدل للمساكين** ويحكم

بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض **بقضيب فمه** ويُميت المنافق **بنفخة شفتيه**. ويكون البر **منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه**،... لا يَسُوؤُون ولا يُفسدُون في كل جبل قُدسي لأن **الأرض تمتلئ من معرفة الرب** كما تُغطّي المياه البحر. ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسّى القائم **راية للشعوب إياه تطلب الأمم** ويكون محلّهُ مجداً» (إشعياء١١: ١-١٠).

هذا التصوير للملك الجديد "المسيا" يتناسب تماماً مع الطبيعة الإلهية التي أراد الله أن تكون عليها مملكة إسرائيل. وهذا الوصف هو كَشْف ما بعده كشف لكل قصد الله وتدبيره من قيام مملكة إسرائيل وغايتها!

والملاحظ هنا أن تصوير المسيا كملك أصبح تصويراً مجازياً جداً من جهة المفهوم البشري السياسي، لأن حكومة هذا الملك أصبحت واضحة في أنها تشمل العالم كله؛ كما أن قوة هذا الملك هي في **"فمه"**، وسلاحه الذي يعاقب به هو **"شفتيه"** وقدرته يستمدها من **برّه وأمانته**!!

أما **شعب** هذه المملكة المترامية الأطراف فليس من العظماء والأقوياء والحكماء بل هم **المساكين**، وشغل الملك الشاغل هو إنصاف **بائسي** الأرض!

أما **الدستور الجديد** لهذه المملكة الجديدة فلا ينطوي تحت الحرف ولا تحدُّه كلمات وألفاظ، ولكنه **روح يفيض على الجميع بالمعرفة** كما تغطي المياه البحر.

وهو لا يغزو الأمم أو يلاحقها ليُخضعها بسيف ورمح، ولكنها هي تنجذب إليه كما ينجذب الشعب حول راية النجاة، وتتبارى الأمم في طلب ودِّه!

ومن هذه النبوة وغيرها نستطيع أن نرى مقدار صحة الرؤيا وإدراك

الأنبياء لأوصاف المسيا الروحية والإلهية التي ظهرت كاملة في شخص يسوع المسيح ملك السلام، الذي قال هو عن نفسه:

«اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران، العُمي يبصرون والعُرْج يمشون والبُرص يُطهَّرون والصُمُّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبشَّرون. وطوبى لمن لا يعثر فيَّ» (مت١١: ٤-٦).

ويلاحظ هنا أن أقوال المسيح بعد أن استعرض أعماله: «طوبى لمن لا يعثر فيَّ»، هو إشارة إلى أن صفات الملكوت وصفاته هو كملك، لا تزال سرية تحتاج إلى بصيرة ورؤية وإلهام، وأن الملكوت لا يزال في هذا الدهر على مستوى البذرة والخميرة الصغيرة والشبكة.

ولكن منذ أن بدأ يتكلم الآباء والأنبياء والربيون في إسرائيل عن الملكوت القادم، بدأ الانقسام أيضاً في التفكير والتفسير، فقد تمادى اليهود المتعصبون للأرض والحدود، والطين والذهب واللحم والدم، والألقاب والمواريث، في أن يتصوروا ملكوت الله على هذا الصعيد، ويترقبوا المسيا ملكاً منتقماً لإسرائيل من الأمم، ويوسع تخومهم ويَسْحَق أعداءهم ويذل رقاب الشعوب تحت أقدام اليهود! لذلك لم يجدوا في المسيح ما يؤهله أن يكون ملكاً لهم ولا وجدوا في أقواله ما يروي شهوتهم.

وقد ساعد هؤلاء المتعصبين على المضي في تعصبهم بعضُ النبوات التي تستخدم الألفاظ الزمنية في شرح الأمور غير الزمنية، كأن تقول النبوة مثلاً إن إسرائيل سترث الأمم، أو إن المسيا سيُخضع أعداءه تحت رجليه؛ غير عالمين أن الميراث هنا هو ميراث روحي وأن الخضوع هنا هو بالحب والاتضاع.

أما السبب في هذا العجز الفاضح في فهم النبوات روحياً فهو ناشئ:

أولاً: من الجهل بمعرفة قصد الله الأول من قيام مملكة إسرائيل الزمنية وهو أن تنتهي إلى استعلان مملكة الله الأبدية.

كما أنه ناشيء:

ثانياً: من الضغط والذلة والعبودية المرة التي بلغتها إسرائيل في نهاية أيامها من بعد مجد وعز كثير مما جعلهم يطلبون الحرية الأرضية والجسدية ويتجاهلون حرية الروح. مع أن الضيق والذلة والعبودية السياسية المرة التي صارت فيها إسرائيل حتى صارت تحت سيادة الأمم في أواخر أيامها **كان تعبيراً لاهوتياً رائعاً عن اتضاع انفتاحها للأمم!**

فهل قدَّم المسيح نفسه للعالم جالساً على عرش من ذهب، أم قدَّم نفسه للعالم مصلوباً ومغلوباً له؟

فكما أن العالم لم يعرف المسيح ولم يقبله بل ولم يرثه إلا بعد أن عرَّاه وصلبه، هكذا صار لإسرائيل، فحينما خرَّت صريعة تحت أرجل الأمم انسكب مجدها وغناها الروحي وميراثها الآبائي ودستورها الإلهي وناموسها الأدبي والأخلاقي على العالم كله، فورثته الأمم كغنيمة الغنائم.

حقاً لم يكن ممكناً أن ترث الأمم مجد إسرائيل ولا أن تتنازل إسرائيل عن مجدها للأمم إلا بعد أن ينْشقَّ غلافها الزمني الزائل، أي شكلها كمملكة زمانية، حتى يصبح جوهرها الروحي مِلكاً لكل أمة وكل عابر سبيل!

وهكذا لا يمكن أن نفهم المسيح بدون إسرائيل، ولا يمكن أن نفهم إسرائيل بدون المسيح.

فكما جُرِح المسيح وتمزَّق جسده على الصليب تمهيداً لتقسيمه على أربعة أركان العالم، هكذا تمزقت إسرائيل وانقسمت – كما رآها النبي الحاذق زكريا بروح النبوة: «...نصفها إلى البحرِ الشرقيِّ ونصفها إلى البحر الغربيِّ... ويكونُ الربُّ مَلِكاً على كل الأرض.» (زك١٤: ٨، ٩)، وكما طُعِن جنب المسيح وخرج الدَم يتدفق مجاناً إلى كل فم، هكذا انكسر قلب إسرائيل فخرجت «مياه أورشليم الحية» مشاعاً تروي قلب كل إنسان يطلب الحق.

الآن نحن نعيش ملكوت اتضاع المسيح الذي لا يدركه إلا المتضعون. بنو العرس الآن منهمكون في غسل أرجل المدعوين شأنهم شأن عريسهم الذي لما جاء ليؤسِّس ملكوته على الأرض أسَّسه بالدموع وجال متغرباً يتوسل لدى سامرية أن تسقيه.

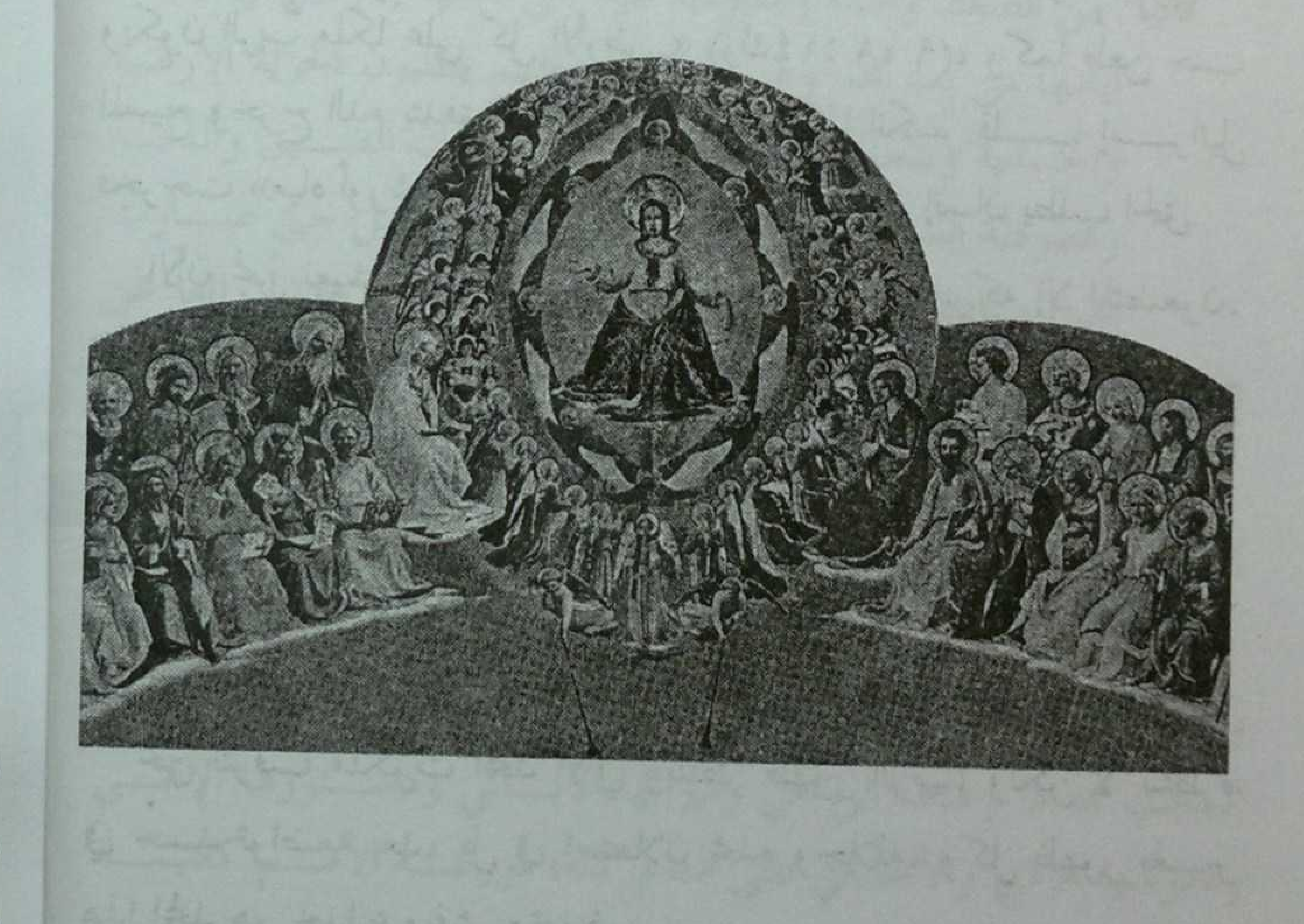
ليس الآن مكان لمتعظم، فالسيد لا يُعرف إلا بكونه يخدم، والرئيس لا يُعرف إلا كعبد، أما المتكأ الأول فلا يطلبه إلا المرفوضون.

نحن نترقب ملكوت المجد الآتي وننتظر ظهور الرب، ولكن لا ننتظره في جسد تواضعه بعد، بل في استعلان مجده وجلاله، وكل ظهور بغير هذا المجد هو خداع وغش وتزييف.

وهكذا أيضاً وبالمثل لم يَعُدْ لإسرائيل أن تلبس فوق مجد عريسها ثوبها الترابي الزمني التالف، أي ميراثها الأرضي المتعفن وسلطانها السياسي القديم الذي ورثته بالحديد والنار وسفك الدماء.

لقد تكللت إسرائيل بالمسيح ولبست مجدها في شخص شهدائها من

تلاميذ ورسل ومؤمنين من كل أسباطها، وهي الآن في السماء تنتظر الإشارة لتنزل من السماء كعروس مزيَّنة مع عريسها، كنيسة قديسين وملائكة وأرواح أبرار مكمَّلين بالمجد.



الفصل الثاني

ملكوت الله واستعلان مجيء المسيح

كان تصور اليهود والأتقياء والمتعمقين في روحانية الأنبياء لشخصية المسيا الآتي، يختلف كثيراً عن حقيقة المسيح لما أتى.

فقد ظن اليهود أن المسيا سيتجه بقوته الفائقة المعجزيَّة لرفع وتعظيم مملكة إسرائيل لتبلغ أَوجَ عظمتها المنظورة كمملكة لله بصورة لم يسبق لها مثيل في العالم. وعلى ضوء النبوات اعتقدوا أنه سيغير نظام الأمور في العالم ويخلق كل شيء جديداً وعظيماً وغير متغير، بدل الأنظمة التي ملُّوا من عجزها وفسادها.

وبالتالي تصوروا ملكوت المسيا كأعلى وأعظم ما يكون لحكم الله على الأرض! بحيث يكون هذا نهاية كل إصلاح وتغيير، وكآخر مرحلة من مراحل نمو وتطور البشرية مادياً.

وإذ كان من العسير أن يتمشوا مع النبوات في تطبيق وعود الله (الروحية الخالصة) على تصوراتهم المادية لتطوير النظم البشرية، قالوا في نهاية تفكيرهم واجتهادهم إن هذا الملكوت سيفوق في مجده وعظمته ودقته كل ما يخطر على بال بشر، بما يتفق مع مقدرة المسيا الخارقة للعادة والفائقة للعقل والطبيعة وحكمه الإلهي المقتدر، حينما يضبط كل الأشياء معاً لتكون وفق مشيئته العليا.

وطبعاً وبكل تأكيد تركَّز كل الإحساس حول هذا الملكوت في المستقبل، وبذلك طُويت كل الآمال ومعها كل الجهود البشرية، ووُضعت في ظلام هذا المستقبل الآتي، في انتظارٍ عاطلٍ خافقٍ لما سيكون،

وبالتالي **أصبح نظام العالم الحاضر في أعينهم بشروره وعجزه متعارضاً كل التعارض مع ذلك المستقبل الذهبي السعيد الذي لن يكون فيه شيء من هذا الشر والعجز.**

وهكذا تحصنوا ضد أي إمكانية لظهور المسيا كإنسان تحت الناموس الحاضر أو كرجل أوجاع وآلام ومختبر للحزن يحمل خطايا الناس ويئن تحت مظالمهم!! كما تحصنوا ضد أي قبول لملكوت إلهي يمكن أن يُبذر كحبة خردل وسط أشواك الدنيا وينمو صغيراً وقليلاً قليلاً تحت كل عوامل الفساد مجتمعة!!

وهكذا جاء المسيح وجاء ملكوته مخيباً لكل آمال اليهود المنتظرين مجداً دنيوياً لإسرائيل، الطالبين روحانية تخدم أغراض الإنسان وآماله على الأرض!

لقد دخل المسيح إلى العالم من بابه السري غير المنظور: **«قلب الإنسان»**! وابتدأ الملكوت فجأة من داخل الإنسان لا من خارجه!...

+ «ها ملكوت الله داخلكم» (لو١٧: ٢١)!!

+ «إن قال أحد هوذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدِّقوا» (مت٢٤: ٢٣).

وهكذا بمجيء المسيح واستعلان حقيقة الملكوت، غيَّرت المسيحية المفهوم الإنساني عن ملكوت الله تغييراً جوهرياً:

+ فهو الآن ملكوت روحي سمائي ليس له أدنى علاقة بالأوضاع الزمنية أو الحكومات البشرية أو الأوطان الأرضية: **مركزه**

السمائي أورشليم العليا، أمنا الحرة. **ومركزه على الأرض الكنيسة. أما أورشليم الأرضية فقد ماتت كأم.**

+ هو نظام إلهي داخلي سري خفي **لا يُستعلن إلا بالإيمان** في القلوب، غير أن له **علامات في الظاهر.**

+ وهو يختص بالحاضر كما يختص **بالمستقبل**، و«لا يأتي بمراقبة».

+ وهو غير محدود بشعب أو بأمة أو بنظام ولكنه محدود بالمسيح فقط والمسيح غير محدود، **لذلك فهو عتيد أن يشمل كل ركبة تنحني للمسيح** وكل خليقة روحانية تؤمن بالمسيح.

+ كما أن ملكوت الله قائم في العالم الآن داخل قلوب المؤمنين بالرغم من وجود الشرور والآثام والخطايا في العالم، **لأن الإيمان بالمسيح كفادي يُدخلنا ملكوته ويفصلنا عن الشر الذي في العالم في آن واحد.** فالفداء الذي أكمله المسيح بالدم الإلهي هو طريق حي حديث يُدخلنا إلى الأقداس السماوية وفي نفس الوقت هو حاجز إلهي يفصلنا عن العالم الشرير. ولكن **الصراع لا يكُف بين قوى الملكوت التي فينا وقوى الشر التي في العالم، إلى أن يبطل العالم! وعلى المسيحية بصفتها المُعلنة والداعية للملكوت يقع ثقل الشر وصراع الباطل الذي في العالم كله!**

+ وكما أن المسيحية تقوم على الإيمان والرجاء معاً: الإيمان بالخلاص الجزئي في الحاضر، والرجاء بالخلاص الكلي في المستقبل أيضاً؛ كذلك أيضاً بالنسبة للملكوت، **فنحن نتصل بالملكوت المستعلن جزئياً في قلوبنا اتصالاً وثيقاً في الحاضر بواسطة الإيمان**

الذي لنا الآن في شخص المسيح وبرِّه، كما **نتصل بالملكوت في استعلانه الكلي عند مجيء المسيح في المستقبل اتصالاً يقينياً بالرجاء** الذي لنا في شخص المسيح وأمانة وعده.

+ يستحيل علينا الآن أن نتحقق تحققاً كلياً من الملكوت ومن طبيعته لأن الملكوت لم يُستعلَن بعد الاستعلان الكامل بسبب أننا إلى الآن غير كاملين في الإيمان وفي الرجاء لأننا ناقصون في المعرفة: «الآن نعرف بعض المعرفة» (١كو١٣: ١٢)!

+ ولكن الاستعلان الكلي للملكوت لن ينشأ نشأة تدريجية بتطور النظام الطبيعي الزمني ولا بتطورنا نحن في الإيمان والرجاء والمعرفة، ولكن هذا **الاستعلان الكلي سيظهر فجأة باستعلان مجيء يسوع المسيح في مجده** «وملكوته».

+ فكما أن تجسُّد المسيح، أي مجيئه الأول ليبطل سلطان الخطيـة، كان واسطة في استعلان ملكوت الله جزئياً بالإيمان والرجاء، كذلك فإن الاستعلان الكلي لملكوت الله لن يتم إلا بتوسط المجيء الثاني للمسيح في مجده. أما الاستعلان الجزئي الآن لملكوت الله فهو «ليس بكلام بل بقوة» (١كو٤: ٢٠)، قوة حياة داخلية يتأيد بها الإنسان في الباطن بالروح، قوة حياة لا تزول، قوة الله للقيامة التي تعمل في أجسادنا منذ الآن.

+ كما أن ملكوت الله الآن لا يتعلق بأمور خارجية، بأكل أو شرب: «ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً، بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس» (رو١٤: ١٧). لذلك فحينما نملك هذه المفاعيل

الداخلية أي البر والسلام والفرح، يصير هذا برهاناً أننا صرنا شركاء في ملكوت الله، ويكون قد بدأ يُستعلن لنا فعلاً.

فكما أن «**ملكوت الله داخلكم**»، **هكذا ينبغي أن تكون علاماته الآن في داخلنا!**

وأما الاستعلان الكامل لملكوت الله، فإن كنا لا نعرفه ما هو الآن بسبب نقص معرفتنا وبسبب عدم استعلان المسيح للآن استعلاناً كاملاً في مجده، إلا أننا نعرف أنه بمجرد أن يجيء المسيح سنصير شركاء معه في هذا الملكوت: «إن كنا نصبر فسنملك أيضاً معه» (٢تي٢: ١٢).

وإن كنا لا نعرف بعد ما هو مجد الله الذي سيُعلَن بظهور المسيح في مجيئه الثاني، إلا أننا مدعوون منذ الآن لنجاهد على رجاء أكيد للحصول على شركة في هذا المجد: «ونُشهدكم لكي تسلكوا كما يحق لله الذي دعاكم إلى ملكوته ومجده» (١تس٢: ١٢).

لذلك فبقدر ما نحن مدعوون للحصول على شركة جزئية في ملكوت الله في الحاضر بالإيمان، يكون الفرح والسلام الداخلي علامة ذلك.

ولكن نحن مدعوون بالأكثر إلى الحصول على شركة كاملة في ملكوت الله العتيد أن يُستعلَن في المستقبل، وذلك بالجهاد والرجاء الذي لا يكلُّ، والصبر حتى النفس الأخير، واحتمال الآلام والضيق حتى الموت: «حتى إننا نحن أنفسنا نفتخر بكم في كنائس الله، من أجل صبركم وإيمانكم في جميع اضطهاداتكم والضيقات التي تحتملونها، **بَيِّنَةً على قضاء الله العادل، أنكم تؤهلون لملكوت الله الذي لأجله تتألمون أيضاً**» (٢تس١: ٤-٥).

وبواسطة شركتنا في الملكوت سواء جزئياً في الحاضر بالإيمان المبني

على المحبة، أو كلياً في المستقبل بالرجاء المبني على الجهاد، فنحن نتهيأ داخلياً كل يوم لكي نأخذ مكاننا كأعضاء في هذا الملكوت الذي سوف يضم كل الخلائق الروحانية التي لن يربطنا بها إلا المسيح نفسه!!

ولكن كل ما نعمله سواء بالإيمان المبني على المحبة، أو الرجاء المبني على الجهاد، لا يمكن أن يؤهلنا من ذاته لميراث ملكوت الله، ولكنه يعدنا فقط لظهور ربنا يسوع المسيح حينما يأتي في مجده، فلا نخاف ونخزى من ظهوره بل نحتمل مجده! أما استحقاقنا للملكوت ودخولنا في شركته فهذا يكمله لنا استعلان مجد المسيح في حد ذاته عند "مجيئه الثاني المخوف المملوء مجداً"، وقبولنا هذا المجيء واشتراكنا فيه بغير خزي، لأن المسيح عندما يأتي سوف يظهر في مجد ملكوته مع كافة الملائكة والخليقة الروحانية وأرواح القديسين، ويدعونا نحن الباقين لنظهر معه!



الفصل الثالث

صراع ملكوت الله في الحاضر

مع «أركان هذا العالم»، و«هذا الدهر»

كيف استحق يسوع المسيح أن يكون صاحب هذا الملكوت ومدبره:

ملكوت الله **في الحاضر** سواء في السموات أو على الأرض قد أُعطي بجملته ليسوع المسيح «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت٢٨: ١٨). وهذا لم يأخذه **المسيح** خلسة، **فهو** منذ البدء الصورة الحية المنظورة لله المحتجب غير المدرَك، إذ فيه أعلن الله نفسه قبل أن تُخلق الموجودات بجملتها، **وفيه** تصورت وخُلقت كل خليقة ما موجودة في السماء أو على الأرض وكل قوة منظورة كانت أو غير منظورة، وليس فيه فقط قد خُلقت هذه بل **بواسطته أيضاً ومن أجله!!** الذي هو قبل الكل، وهي لا تزال **تستمد حتى الآن وجودها منه!!**

- «الذي هو صورة الله غير المنظور»،
- «بكر كل خليقة، فإنه فيه خُلق الكل: ما في السماوت وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين»،
- «الكل به وله قد خُلق»،
- «الذي هو قبل كل شيء، وفيه يقوم الكل» (كو١: ١٥- ١٧).

وابن الله، الذي هو رأس الكل وحامل كل المدركات في نفسه، أصبح من المحتم بسبب هذه الصفات الجوهرية أن يُدفع إليه ملكوت الله

بجملته. وقد هيأ المسيح نفسه في الحاضر لهذه المسئولية بالإضافة إلى ما كان له أصلاً، حتى تكمل أولويته لكل خليقة ورئاسته لكل نظام ما في الوجود. لذلك فإنه تجسد لكي حينما يعطي الكنيسة هذا الجسد يصير رأس الكنيسة التي هي جسده أي نحن، وكذلك فإنه قام من الأموات فصار بذلك بكر القيامة ورأس القائمين من الموت، ولما قام بالجسد ممجَّداً صار باكورة الخليقة الجديدة للإنسان، التي خلقها في نفسه وبنفسه، فصار المسيح بالنسبة للبشرية المصدر الذي تستمد منه حياتها الجديدة كخليقة روحانية لله، وبهذه الخليقة الجديدة التي بالمسيح وفي المسيح استطاعت البشرية أن تستمد منه دخولها إلى ملكوت الله في النهاية: «**هكذا في المسيحِ سيُحيا الجميع**، ولكن كل واحد في رتبته. **المسيح باكورة** ثم الذين للمسيح في مجيئه» (١كو١٥: ٢٢-٢٣).

وبهذا صار يسوع المسيح ابن الله بالحقيقة الباب الحقيقي لملكوت الله والطريق الحي إليه **ونقطة الوصل والاتحاد بين الخليقة الجسدانية والخليقة الروحانية**، وذلك بصفته إلهاً متجسداً وبصفته فادياً عتق الإنسان من الموت الأبدي، الموت الذي كان يعطل هذا الوصل وهذا الاتحاد ويمنعه.

وبهذا كله صار كل مجد الله الكائن في كافة الخلائق المادية والروحانية لا يمكن أن يُستعلن إلا بواسطة يسوع المسيح، لأن الله من جهته لا يعلن نفسه إلا في المسيح يسوع، وفيه فقط يُستعلن مجده، ومن جهة أخرى لا يستطيع شيء في الوجود من جهة أي خليقة أو أي نظام أن ينتمي إلى الله إلا بالمسيح يسوع لأنه حامل الكل في نفسه!

لذلك فاستلام يسوع المسيح ملكوت الله هو حسب مشيئة الله تماماً، وقد مهَّد له بكل حكمة وفطنة قبل الدهور، وأكمله في أواخر الأيام بموته وقيامته من الأموات: «حسب غنى نعمته، التي أجزلها لنا بكل حكمة وفطنة، إذ عرَّفنا بسر مشيئته، حسب مسرته التي قصدها في نفسه، **لتدبير ملء الأزمنة، ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السماوات وما على الأرض، في ذاك**» (أف١: ٧-١٠).

العدو الأول للمسيح

ولم يكن ملكوت الله سهلاً على المسيح ليضبطه بدون تضحية ولا على الذين يؤمنون بالمسيح لينالوه بدون ثمن.

أما العدو الأول للمسيح، فهو الشيطان "عدو كل بر" الذي اضطلع منذ البدء بمقاومة المسيح شخصياً، ومنع استعلان ملكوت الله على الأرض، وبمحاولة تقويض أركانه في السماء والعالم والإنسان بكل قوة، لا بمجرد المقاومة الهوجاء وإنما بخطط ودهاء ومكر:

أولاً بتزييف حقيقة الملكوت وصفاته لتضليل الناس عنه.

ثم بشكاية المختارين واتهامهم ظلماً.

ثم بوقوفه كمجرِّب يدَّعي حقه في عرقلة كل السائرين في طريق الملكوت؛

وكغريم يطالب برقبة الإنسان ثمناً لأي موافقة معه في الشر.

كطاغٍ ومحتال يبدأ بالغواية وينتهي بالاستعباد والأَسر.

كمدَّعي الحرية وهو قتَّال للناس منذ البدء.

كمشير بالسعادة وهو يحتفظ بنهاية تعيسة لمن يقع بين يديه.

طبيعة الشيطان:

معروف أن الشيطان رئيس ملائكة عصى الله قديماً مع جماعة كبيرة من الملائكة التي كانت تخضع له، هؤلاء لم يحفظوا حدود رئاستهم فسقطوا وحُرموا من نور الله: «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم، بل تركوا مسكنهم حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام» (يه١: ٦).

لذلك سُميت مملكة الشيطان بمملكة الظلمة كناية عن خلوها من نور الله أي من الحق المحيي. كما سُمي الشيطان «بسلطان الظلمة» كناية عن رئاسته على الكذب كقول المسيح: «لأنه كذاب وأبو الكذاب» (يو٨: ٤٤). ومن هنا أصبح له قدرة التأثير على أفكار الناس لتضليلهم وحرمانهم من الحق وملكوت الله.

ولكن كذب الشيطان ليس مجرد الكذب الأخلاقي الشائع، بل يشمل كل عطايا الشيطان الشهوانية ومواعيده الدنيوية الباطلة باعتبارها أنها كلها زائلة وقادرة أن تلهي الإنسان عن الحق والله.

وكان الله قد أعطى الشيطان منذ البدء، السلطان على ممالك العالم: «ثم أصعده إبليس إلى جبل عال وأراه **جميع ممالك المسكونة** في لحظة من الزمان. وقال له إبليس: «**لكَ أُعطي هذا السلطان كله ومجْدَهُنَّ لأنه إليَّ قد دُفع** وأنا أُعطيه لمن أريد. **فإن سَجَدْتَ أمامي** يكون لك الجميع» (لو٤: ٥-٧). ويلاحظ أن كلمة « إليَّ قد دُفع وأنا أُعطيه لمن أريد» تفيد أن سلطان إبليس على العالم لم يغتصبه ولكنه كان يستمده من الله،

ولكن الله أطال أناته على شروره لكي يبيده بالعدل وليس بمجرد القوة.

وقد تحددت سلطة الشيطان على العالم جداً بمجيء المسيح بصفته النور والحق والحياة، وانتهى مجد الشيطان في يوم الصليب كما سنرى، حيث فضحه ابن الله جهاراً وظفر به على الصليب وأسقطه من السماء بصعوده كما سبق ورآه الرب: «رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء» (لو١٠: ١٨). وكانت المقابلة الأخيرة بين الشيطان والمسيح على الأرض مخيِّبة لآمال الشيطان نهائياً، «رئيسُ هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو١٤: ٣٠).

كيف سقط الشيطان من رتبته؟

الملائكة عموماً ذوو طبيعة "**مخلوقة على الخدمة**" المنوطة بها من قبل الله. وهي ليست مخلوقة لأية غاية أو نهاية أخرى غير هذه الخدمة، لذلك فالخدمة هي الصلة الوحيدة التي تربطها بالله، كما أنها العمل الوحيد الذي تُحقَّق به الملائكة طبيعتها. لذلك فطاعة الخدمة بالنسبة للملائكة حسب درجاتها هو منتهى سعادتها: «أليس **جميعهم أرواحاً خادمة** مُرسَلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب١: ١٤).

لذلك أصبح رفض الشيطان للخدمة المنوطة به بمثابة قطع الصلة الطبيعية الإيجابية التي تربطه بالله، وبالتالي أدت إلى سقوطه من الوجود أمام وجه الله. والوجود بدون رضى الله عمل سلبي موجه ضد كيان طبيعة الشيطان نفسه. فالشيطان برفضه الخدمة قد مزق نفسه وأتعس ذاته إلى الأبد، لأن رفض الشيطان لطاعة الله ليس مثل رفض الإنسان لطاعة الله، فالإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله ومدعو للشركة مع

الله، لذلك فطبيعته مخلوقة وفيها إمكانية لتتحول من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح، لذلك فطبيعة الإنسان كانت ولا زالت قابلة للتغيير إلى أفضل، وبالتالي فعنصر التوبة والندم والمغفرة عنصر أساسي في طبيعة الإنسان المخلوقة لتؤهله باستمرار إلى غايته النهائية - أي الاتحاد بالله. فعندما يخفق الإنسان في تحوُّله إلى غايته بسبب ضعف الجسد فإن الله نفسه يسنده والتوبة تجدده.

ولكن الشيطان كملاك ليس مخلوقاً للتحول إلى أعلى، فهو غير قابل للامتداد فوق طبيعته الخادمة، فغايته النهائية كانت خدمته فقط، وهي تساوي طبيعته تماماً وتوازي كل كفاءته. لذلك فهو إذا توقف عن الخدمة ورفض الخضوع والطاعة لله فإنه يكون قد نكص عن طبيعته، ولا يكون له توبة، لأنه غير مدعو للامتداد أكثر مما له.

وكذلك فإن أحزان الشيطان وآلامه بسبب سقوطه من درجته ليست مثل أحزان الإنسان وآلامه. فبينما أحزان الإنسان وآلامه تنشأ بسبب إخفاقه في بلوغ الغاية الموضوعة في طبيعته، أي أن يصير كاملاً وقدوساً كالله حسب الصورة المخلوقة فيه، وهذا الأمر هو فعلاً فوق طاقة الإنسان ويحتاج باستمرار إلى معونة الله، لذلك فآلام الإنسان تدخل إلى قلب الله وهو يستجيب لها باستمرار «**في كل ضيقهم تضايق**» (إش٦٣: ٩)؛ أما آلام الشيطان فهو المسئول عنها وحده، لأنه لم يُخلق أصلاً ليصير مثل الله، ولا ليكون أفضل مما هو، ولكن كان المطلوب منه فقط أن يبقى كما هو، فلم يبقَ، **وخالف دون أن يكون له عذر من طبيعته**. لذلك فآلام الشيطان لا تدخل إلى قلب الله، لأن مخالفته ليست واقعة تحت مسئولية الله، ولهذا فجزاؤه وموته لا يدخلان تحت رحمة الله، وفي نفس الوقت لا توجد في طبيعة

الشيطان فرصة التوبة!! وهكذا وقع الشيطان ومن معه في يأس مطلق من أية رجعة إلى نور الله مرة أخرى، ولذلك أبغض الشيطان الله بغضة لا تعرف المهادنة أو الرجوع، وأبغض أيضاً النور الذي خدمه أي الحق أينما كان وكيفما كان، كما أبغض الشيطان كل إنسان يعيش في هذا النور أو يسعى لكي يعيش فيه.

اتساع مملكة الشيطان

كان من غير المعقول أن الشيطان وهو ممتلىء شراً أن لا يكون له أعوان ملائكة مثله تخضع له وتخدمه، لأنه معروف أن طبيعة الشر هي التخريب والانقسام والتنازع باستمرار. ولكن بسبب انقطاع عنصر الخير عن الشيطان ومن كانوا يتبعونه انقطاعاً مطلقاً، ساد عليهم عنصر الشر جميعاً إذ تساووا في التمرد والعصيان لأوامر الله، وصاروا أداة مقاومة وإفساد لكل طرق الخير، وبذلك أصبحوا في أُلفة شريرة يحكمها الميل إلى تدمير كل ما هو حق أو يؤدي إلى الحق أو يسير نحو الحق. واستخدموا معاً كل طرق الغش والخداع والتزييف، واستغلوا كل ضعف في الإنسان والطبيعة ليكملوا به شرهم... «أيها الممتلىء كل غش وكل خبث **يا ابن إبليس** يا عدو كل بر، ألا تزال تفسد سبل الله المستقيمة» (أع١٣: ١٠).

ومن هذه الآية ومن آية أخرى قالها المسيح: «**أنتم من أب هو إبليس** وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو٨: ٤٤) يتضح اتساع مجال ملكوت الشيطان بواسطة دخول الناس تحت طاعته وتحوُّلهم إلى عبيد وبنين له يعملون كل شهواته التي يشتهيها من جهة إفساد طرق الله.

لذلك لم تعد تقف هذه المملكة الشريرة بكل جنودها الروحيين غير المنظورين عند حد شرورهم فقط لمعاندة الله، بل امتدت فضمت إلى نفسها عبقرية الإنسان الذي بدأ يخدم الشيطان «**بالخطيئة**» التي هي مُعادل «**الشر**» عند الأرواح الشريرة! فتكونت علاقة قوية مباشرة بين انتشار **الخطيئة في الناس** وبين **قوة الشر في مملكة الأرواح الشيطانية** غير المنظورة. **وبذلك صار مبدأ "الشر" و"الخطيئة" واحداً باتحاد بني الإثم معاً من ملائكة ساقطين وبشر.** أما مضمون هذا الاتحاد الأثيم بين شر الشيطان وخطيئة الإنسان فهو يتركز في الانصباب الأناني ضد مشيئة الله، واستخدام كل طاقات الإنسان الجسدية والعقلية والنفسية بمؤازرة دوافع الشيطان الشريرة للإمعان في عدم الخضوع لله وارتكاب الإثم ومقاومة ملكوت الله. هذا الاتحاد النجس الذي استطاع أن يحصل عليه الشيطان مع الإنسان يشرحه بولس الرسول بوضوح: «وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذُّنوب والخطايا، التي سلكتم فيها قبلاً حسب **دهر هذا العالم، حسب رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية**» (أف٢: ١-٢).

ومن هنا تظهر خطة الشيطان في مقاومة ملكوت الله داخله: «وأما بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية» (مت٨: ١٢).

مراكز المقاومة

الكتاب المقدس يستخدم اصطلاحين هامين للدلالة على تجمُّع قوى الشر لمقاومة ملكوت الله:

الأول: **"هذا العالم" أو "أركان هذا العالم".**

الثاني: **"هذا الدهر".**

أولاً: هذا العالم.

وحينما يستخدم الكتاب اصطلاح **"هذا العالم" أو "أركان هذا العالم"** يشير إلى اتحاد قوى الشر الروحية لدى الملائكة الساقطين مع قوى الخطيئة في جسد الإنسان وعقله ونفسه بغواية الشيطان، لطمس معالم معرفة الله وملكوته في قلب الإنسان وتشجيعه على التعدي والعصيان، وبالتالي يتحول الإنسان إلى طاعة الشيطان والتعبد له بدل الله القدوس.

ولكن لا تظهر قوى الشر الروحية في صورها الحقيقية، ولا يستطيع الإنسان في غالب الأحيان اكتشاف مصيبة وقوعه في طاعة الشيطان وعبادته له بدل الله، لأن الأرواح النجسة تجعل من الشهوات العالمية الطبيعية ومن الغرائز مجالاً لعملها وغوايتها، وبذلك يصبح العالم والجسد ستاراً لها تختفي خلفه، وحينئذ ينجذب الإنسان إلى العالم وشهواته وغرائزه الطبيعية بسهولة، ويتعلق بها تعلقاً شديداً دون أن يدري أنه واقع تحت غواية الشيطان الذي يعمل فيها وبواسطتها حتى يسلبه كل حرية إرادته ويطفئ منه بالنهاية كل ميل لعبادة الله. ومن هنا يستخدم بولس الرسول اصطلاح **"أركان هذا العالم"** مشيراً به إلى تلوث طبيعة الأصول الأولى للعالم سواء

كانت فكرية فلسفية أو عقلية مادية أو عاطفية نفسية، حتى صارت طبيعة العالم مفسودة جملة، إذ هي تحت غواية وسلطان الشيطان بصفته «رئيس هذا العالم»، ومتبنياً لجماعة الأشرار المُندسَّة في كل ركن من أركان العالم الطبيعي: «هكذا نحن أيضاً لما كنا قاصرين (في معرفة المخلِّص والفادي) كنا **مستعبَدين تحت أركان العالم**» (غل٤: ٣).

ويتضح من هذا أن الانصباب وراء طبيعة العالم أصبح بسبب عبث الشيطان ينتهي حتماً إلى تعبُّد للشيطان!!

-«إذاً إن كنتم قد **مُتُّم مع المسيح عن أركان العالم** فلماذا كأنكم عائشون في العالم؟» (كو٢: ٢٠). وهنا يجعل بولس الرسول الموت مع المسيح قوة تُحرِّرنا من طبيعة العالم.

-«وأما الآن إذ عرفتم الله بل بالحري عُرفتم من الله فكيف **ترجعون إلى الأركان الضعيفة** الفقيرة التي تريدون أن **تُستعبدوا لها** من جديد؟» (غل٤: ٩). وهنا يضع بولس الرسول معرفة الله كقوة ترفعنا فوق طبيعة العالم.

-«انظروا ألا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس **حسب أركان العالم وليس حسب المسيح**» (كو٢: ٨). وهنا يوازن بولس الرسول بين نقيضين: حياة حسب أركان فلسفة العالم، وحياة حسب المسيح.

ثانياً: *هذا الدهر*:

أما اصطلاح "حسب هذا الدهر" فيخصصه بولس الرسول ليشرح علاقة الحاضر الزمني للعالم **بالروح الشرير الذي يوجه فكر العالم**

ومزاجه العقلي ضد المسيح بصورة مركَّزة. فكلمة هذا الدهر تفيد المزاج العقلي الزمني للعالم، وكيف يسيطر عليه الشيطان بصورة خطرة ليوقع تحت ظلمته كل الذين يعيشون في النور.

-«الذين فيهم **إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين** لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح» (٢كو٤: ٤).

وهنا يتضح دور الشيطان الخطير مع كافة أعوانه لتقويض أركان ملكوت الله، وذلك بإفساد **روح العالم ومزاجه العام** في نشر البدع والخرافات والعلم الكاذب الاسم (العلوم المضلَّة الخطرة كعلم الأرواح وخلافه) والضلالات الفلسفية التي تُحبِّذ الإلحاد وتُزيِّنه بأفكار عقلية محبوكة، والثقافات التي تدعو إلى الحرية المفسدة والفنون الخليعة، وغيرها من كل ما يتصل بعقل الإنسان وفكره.

-«أخيراً يا إخوتي تقووا في الرب وفي شدة قوته، البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس، فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء مع السلاطين **مع ولاة هذا العالم (المتولِّين) على ظلمة هذا الدهر** مع أجناد الشر الروحية في السماويات» (أف٦: ١٠-١٢).

الفَصْلُ الرَّابعُ

كيف أبطل المسيح قوة الشيطان وسلَّمَنا «سلاح الله الكامل»؟؟

وبحصول البشرية على الفداء الذي أكمله المسيح بالصليب، تحرر الإنسان من «أركان العالم»، كما يوضحه بولس الرسول في قوله: «وأما من جهتي فحاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به قد صُلب العالم لي وأنا للعالم» (غل٦: ١٤)، حيث العالم هنا إشارة إلى عنصر الشر وكناية عن الأرواح الشريرة المتملكة على نظام العالم الزمني والمادي التي أغوت بني الملكوت والتي كان يتعبد لها الوثنيون. لذلك يقول: «وأما **الآن إذ عرفتم الله** بل بالحري عُرفتم من الله، **فكيف ترجعون أيضاً إلى الأركان الضعيفة الفقيرة التي تريدون أن تُستعبدوا لها من جديد؟** أتحفظون أياماً وشهوراً وأوقاتاً وسنين؟» (غل٤: ٩،١٠)، «إذاً إن كنتم **قد مُتّم مع المسيح عن أركان العالم فلماذا كأنكم عائشون في العالم تُفرض عليكم فرائض؟**» (كو٢: ٢٠).

ويلاحظ هنا أن بولس الرسول يخاطب أهل غلاطية وكولوسي وهي بلاد وثنية، حيث يقصد بولس الرسول من كلمة "فرائض" و"المواسم" ما كان سارياً في العبادة الوثنية من طقوس سحرية وشعوذة وعادات موروثة.

ولكي يُبطِل عنا المسيح سطوة «أركان العالم»، وُلد تحت نفس الظروف التي يولد فيها الإنسان ويعيش، حتى يستطيع أن يفتدينا منها بنفسه: «هكذا نحن أيضاً لما كنا قاصرين **كنا مُستعبدين تحت أركان العالم.** ولكن لما جاء ملء الزمان **أرسل الله ابنه** مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس **ليفتدي الذين تحت الناموس** لننال التبني» (غل٤: ٣،٤). بهذا يتضح لنا أن تجسد المسيح بحد ذاته كان عملاً مباشراً ضد الشيطان وضد شروره، لذلك نسمع بوضوح من المسيح: «رأيتُ الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء» (لو١٠: ١٨). وواضح من هذه الآية أن العمل الأول للمسيح هو مقاومة الشيطان ونقض مملكته وأعماله: «من يفعل الخطيئة فهو من إبليس لأن إبليس من البدء يخطئ، لأجل هذا أُظهر ابن الله **لكي ينقض أعمال إبليس**» (١يو٣: ٨)، «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما **لكي يبيد** بالموت ذاك **الذي له سلطان الموت أي إبليس**» (عب٢: ١٤).

لأن اتضاع المسيح ونزوله إلى الأرض وتجسده أذل كبرياء الشيطان وأحدره من السماء وحدد المواجهة معه على الأرض! لذلك كان أول عمل بدأ المسيح يباشره باهتمام هو إخراج الشياطين من الخليقة البشرية بقوته الذاتية، أي من كل إنسان كان عليه روح نجس، مشيراً بذلك إلى الاتجاه الرئيسي الذي جاء ليكمله وهو إبطال قوة الشيطان.

وإذ تركزت شرور الشيطان في الضلالات العقلية التي طغى بها على تفكير الإنسان وعلاقته بالله، بدأ المسيح يبطلها بتعاليمه، لتحرير عقل الإنسان من الأوهام، ثم عزز تعاليمه بإعطاء الناس مواهب وقوات

وسلطاناً على الأرواح الشريرة لإخضاعها تحت سلطان الإنسان وإخراجها. والمعروف أن قوة الشيطان الأساسية هي في تأثيره على عقول الناس حتى يضلهم عن الحق وعن الله، فيمنع عنهم نور المعرفة والاتصال بالله. وهذه الشرور والضلالات العقلية التي يبثها الشيطان في عقول الناس كانت ولا زالت في الواقع أصل الخطيئة الفعلية المعمولة بالإرادة وسلطانها الذي يزيغ الناس عن سُبُل الله.

ولكن المسيح أضاف إلى المواهب الموهوبة للإنسان موهبة جديدة وعجيبة زادت من قدرة الإنسان وتفوقه على الشيطان بصورة رائعة، فقد أعطى التلاميذ - أي الكنيسة - موهبة وقوة وسلطاناً لمغفرة الخطايا ليُبطِل كل النتائج التي تترتب على شرور الشيطان! لذلك نجد أن موهبة المسيح التي أعطاها لتلاميذه أي للكنيسة يمتد مفعولها ويتجاوز الأرض إلى السماء: «كل ما تربطونه على الأرض يكون **مربوطاً في السماء**، وكل ما تحلونه على الأرض **يكون محلولاً في السماء**» (مت١٨: ١٨)، وبذلك لم يعد للشيطان فرصة على الناس لا في حياتهم ولا بعد مماتهم إن هم تمسكوا بحق المسيح، وبذلك يبطل عنا شر الشيطان ويبطل عنا سلطان الخطيئة وكل نتائجها المُهلكة في الحياة الحاضرة وفي المستقبلة أيضاً في الأرض وفي السماء!! وبهذا يكون المسيح قد حبس الشيطان في دائرة سلطان الإنسان - أي الكنيسة - وعزله عن ملكوت الله وأبطل نشاطه وألغى أثره المميت وعالج نتائج شروره!!

«الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣١)، أي أنه بمجرد أن ذُبح المسيح على الصليب، سقط

الشيطان من رئاسته على العالم، كما سحب منه كل سلطانه الذي كان له "على كافة ممالك الأرض"، وصار المسيح وحده "مخلِّص العالم" و"نور العالم" و"حياة العالم" و"ملك ملوك العالم"!!

ولكن نعود ونكرر أن المسيح أبطل قوة الشيطان وجرده من كل قوة وألغى كل أثر لشروره **بآلامه وموته**: «وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغَلَف جسدكم، أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا، **إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض الذي كان ضداً لنا، وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب، إذ جرد الرياسات والسلاطين، أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه** (أي في الصليب)» (كو٢: ١٣-١٥).

ثم كانت **قيامة المسيح** برهان النصرة الكاملة والغلبة السافرة التي صعد في موكبها المسيح ظافراً إلى السماء وساد على كل قوات العدو، إذ بارتفاعه إلى السماء صار عدوه تحت رجليه!!: «إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه **في السماويات فوق كل رياسة وقوة وسيادة وكل اسم يُسمَّى ليس في هذا الدهر فقط بل وفي المستقبل أيضاً، وأخضع كل شيء تحت قدميه**، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة» (أف١: ٢٠-٢٢).

وفي نفس صعوده الظافر الممجَّد، وكنتيجة لغلبته على سلطان الشيطان، وكبرهان لألوهيته ونجاح الفداء الذي أكمله، وكعلامة محقَّقة لرضى الآب ومسرته وصفحه عن بني الإنسان، **سكب المسيح على الناس عطايا ومواهب روحية فائقة** ليزدادوا بها قوة فوق العدو، ويمارسوا بها سلطان المسيح نفسه ضد الشيطان وكل جنوده وشروره

ويرفعوا بها كل سقم وضلالة الخطية مع مرارتها!! لذلك يقول: «إذ صعد إلى العلاء سبى سبياً وأعطى الناس عطايا» (أف٤: ٨).

وهكذا امتد وجود المسيح وظفره في كل من آمنوا به، وامتد عمل سلطانه فيهم بواسطة هذه المواهب التي هي "إصبع الله" الفعال ضد الشيطان وشروره وضد الخطية وسلطانها.

ونحن نعلم يقيناً أن انسكاب الروح كان رهن صعود المسيح: «إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي» (يو١٦: ٧)، وذلك باحتساب أن صعود المسيح هو ختام الظفر الذي حققه المسيح لنا ضد مملكة الظلمة والشر «فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يُسمى ليس في هذا الدهر فقط بل وفي المستقبل أيضاً» (أف١: ٢١). وبصعوده صعدنا معه (في طبيعته المتجسدة)، وبجلوسه عن يمين الآب جلسنا معه (في طبيعته المتجسدة)، فكان ذلك صكاً أبدياً بكمال تحرير طبيعة الإنسان وافتدائه وعتقه من تحت سلطان الشيطان وأَسْره، الذي استحققنا به انسكاب روح الله القدوس علينا ونوال حق الشركة في الحياة الإلهية.

وبقوة هذه الحياة الإلهية المنسكبة علينا تحولت الأعضاء التي كانت تخدم الشيطان مستعبدة للإثم والنجاسة، إلى أعضاء تخدم الله والبر والقداسة، ودخلنا ملكوت الله فينا، وساد المسيح!!

إذن، فبالفداء الذي أكمله المسيح لنا وفينا، وبصعوده إلى السماء، انكسرت مملكة الظلمة وتضعضعت قوة الشرير.

ولكن إبطال المسيح لقوة العدو وتحطيم مملكته وسلطانه نهائياً على الناس لا يزال ينتظر عملاً جديداً سوف يعمله المسيح **عندما يجيء في مجده** ليملك

وليُبْطِل الموت، لأن «آخر عدو يُبطل هو الموت»، وليُبْطِل أيضاً «ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس» (١كو١٥: ٢٦، عب٢: ١٤).

لذلك نحن نحارب ضد هذه القوات الشديدة البأس الآن بإحساس النصرة الأكيدة، على أساس ما سوف يتم حتماً بواسطة ربنا يسوع المسيح: «لأن سر الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يُرفع من الوسط الذي يحجز الآن، وحينئذ سيُستعلن الأثيم الذي **الرب يبيده بنفخة فمه ويبطله بظهور مجيئه**» (٢تس ٢: ٧-٨). وحينئذ يظهر ملكوت الله خالياً خلواً تاماً من إبليس وكل أعماله: «وبعد ذلك النهاية متى سَلَّم المُلْك لله الآب، **متى أبطل كل رياسة وكل سلطان وكل قوة، لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه**» (١كو١٥: ٢٤، ٢٥).

ولكن الذي يزيد من ثقتنا في حربنا مع العدو ويعطينا الشجاعة والنصرة عليه، هو ما سبق وأعلنه الله أنه سوف يأتي اليوم الذي ينتقم فيه من الشيطان وملائكته، ونشترك نحن في دينونته: «ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة» (١كو٦: ٣).

ولكن لكل الذين لم يكمل إيمانهم بعد ولم يكمل عمل الفداء فيهم، يظل سلطان الشرير ينازعهم في مسيرهم ويعرقل دخولهم ملكوت الله بأنواع أوهام وظنون وخطايا، ويظل هذا الصراع مستمراً حتى يقبل الإنسان الفداء كاملاً ويشترك في ظفر المسيح الصاعد إلى السماء بمجد الآب، وينال معه ذلك الصعود الممجد فوق «دهر هذا العالم» وفوق كل إغراء للروح الشرير «الذي يعمل الآن في أبناء المعصية». وإذ يشترك في موكب النصرة ينال عطية الروح القدس التي بها يُخضع كل فكر لطاعة

المسيح ويُبْطِل كل عمل وكل شر يرتفع ضد المسيح.

أما الذين نالوا النصرة والظفر الكامل مع المسيح، المحسوبين منذ الآن أبناء الله، أبناء الملكوت، فلا يمكن أن تكف عنهم هجمات العدو ومناوءاته وشروره وظلمته؛ لأنهم وهم في غربة العالم يظل عليهم أن «يحرسوا حراسات الرب» ويحاربوا عن مواهبهم ومغانمهم، ويصارعوا ضد عدو يحاول مستميتاً أن يسترد من كانوا له يوماً من الأيام!! «فاشترك أنت في احتمال المشقات كجندي صالح ليسوع المسيح. ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحياة لكي يُرضي من جنَّده. وأيضاً إن كان أحد يجاهد لا يكلَّل **إن لم يجاهد قانونياً**» (٢تي٢: ٣-٥). فالإنسان الذي حُسب جندياً ليسوع المسيح لا يكف عن أن يصد هجمات العدو سواء عليه هو من الداخل أو على انتشار الملكوت وعرقلة امتداده في قلوب الناس. وفي كلا الميدانين يحاول العدو أن يوقف قوة الملكوت وامتداده: «أخيراً يا إخوتي تقووا في الرب وفي شدة قوته. البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس. فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء، مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات. من أجل ذلك البسوا **سلاح الله الكامل** لكي تقدروا أن تقاوموا في اليوم الشرير، وبعد أن تتمموا كل شيء أن تثبتوا» (أف٦: ١٠-١٣).

ولكن ما هو هذا السلاح الكامل الذي يدعوه بولس الرسول: «سلاح الله الكامل» أو «سلاح الله الكلي» πανοπλία τοῦ θεοῦ الذي يمكن أن نقاوم به الشرير في «اليوم الشرير»؟ لكي ندرك قيمة أسلحتنا

الروحية الكاملة ومنفعتها وضرورتها يلزم أن نعرف أولاً ما هي أسلحة الشيطان التي يستخدمها في حربه معنا، هذه الحرب الخفية المتعددة الجبهات ضد طبيعتنا العقلية؟

طبيعة الحرب الشيطانية

يكشف بولس الرسول حقيقة الصراع بين الإنسان والشيطان كحرب روحية خفية، وهي حرب **لا يمكن أن يشعر بها الإنسان إلا إذا بدأ المقاومة**، لأنه طالما أن الإنسان لا يقاوم المؤثرات العقلية الشريرة التي يؤثر بها الشيطان على عقله، فإن هذه المؤثرات تدخل فيه وتسيطر على فكره ومزاجه ثم قلبه ومشاعره، حتى تملك عليه كافة مَلَكَاته وقدراته. وهنا لا يمكن أن يشعر الإنسان أن هذه المؤثرات كانت من الشيطان وإنما يظنها أنها هي أفكاره وتصوراته وأنها جزء من طبيعته.

ويلاحظ أن الشيطان يستخدم الصفة الطبيعية المشتركة بين الخليقة الروحانية والخليقة البشرية وهي "القوة العقلية". فكافة المخلوقات الروحانية سواء كانت ملائكة قديسين أو ملائكة أشرار ساقطين، فكلهم يملكون قوة عقلية أعلى من القوة العقلية التي في الإنسان، وتستطيع أن تؤثر بها على الإنسان وتستدرجه لمجالها العقلي الخاص، فيصبح الإنسان تحت تأثير وقيادة القوة العقلية الملائكية، دون أن يشعر، إلا حينما يعترض ويقاوم.

لذلك، فالذين يقاومون الأفكار الشريرة بحزم ولا يتهاونون ولا إلى لحظة في طرد كل هاتف خاطئ أو فاسد أو شرير، هؤلاء يحتفظون

بالقوة العقلية التي فيهم مستقلة تماماً وطاهرة تماماً عن أي تلوث أو مشاركة أو إذعان للشيطان، فتزداد حساسيتهم العقلية ضد الشرور، ومن اعتياد الانتباه، وفرز الإلحاحات الشريرة وطردها، يتعرف الإنسان على طرق الشيطان وحيله التي يحاول بها أولاً أن يدسّ أفكاراً داخل عقل الإنسان، ثم إذا نجح يستطيع أن يسيطر على عقل الإنسان كله ويُدخله مجاله قليلاً قليلاً بخفة واحتيال شديدين.

لذلك نسمع بولس الرسول قائلاً: «**لئلا يطمع فينا الشيطان، لأننا لا نجهل أفكاره**» (٢كو٢: ١١).

على أن الشيطان ليس له سلطان على اقتحام عقل الإنسان عنوة، بالرغم من أن قوته العقلية فائقة جداً على قوة عقل الإنسان. وذلك لأن الإنسان يملك قوة الاستقلال الذاتي كهبة تفوق في فاعليتها أية قوة مؤثرة أخرى، التي بها يملك الإنسان قوة مقاومة كفيلة أن تحفظ استقلاله العقلي الذاتي إزاء أعظم قوة عقلية أخرى. فقد حدث كثيراً أن مَارَسَ الإنسان هذا الاستقلال الذاتي وهذه المقاومة إزاء الله نفسه! لذلك لم يعد للإنسان عذر إذا ما فرط في عقله للشيطان وأسلمه لمؤثراته الشريرة. لذلك فالشيطان يعمد إلى الحيلة بعد الحيلة، بدهاء ومكر، حتى يمكنه أن يؤثر في فكر الإنسان ويستدرجه لمشورته وأفكاره.

وما هي حيل الشيطان التي يستدرج بها الإنسان لمشوراته؟

أولاً: حيلة المناسبة:

فهو إذ يرصد شهوات الإنسان وميوله، لا يقدم له مشورات الشر إلا بما يتناسب مع حالته الجسدية والنفسية والعصبية، فهو حينما يجدك مثلاً

غاضباً من أجل الحق يسرع فيقدم لك البُغضة والعداوة يدسُّها فيها دسّاً.

فالمعروف أن الغضب من أجل الحق هو عمل إلهي حيوي لازم للتجديد، أما البغضة فهي عمل شيطاني شرير جداً وقاتل للنفس، ولكن "المناسبة" تجعل الفارق بينهما دقيقاً جداً للغاية. هنا يستطيع الشيطان في سَوْرة غضبك أن يرفع هذا الفارق الدقيق مستخدماً "المناسبة" الدقيقة بين الغضب والبغضة، ويستدرجك من مجال تفكيرك المقدس إلى مجال تفكيره النجس. وبعد أن تبدأ بعمل محيي وهو الحق تنتهي بعمل مميت وهو البغضة. لذلك ينبهنا بولس الرسول في هذا الموقف قائلاً: «**وإذا غضبتم لا تخطئوا**. ولا تغرب الشمس على غضبكم. **ولا تعطوا إبليس مكاناً**» (أف٤: ٢٦، ٢٧الترجمة العربية المشتركة).

كذلك يستخدم المناسبة الشديدة بين الحزن واليأس، فحينما تستسلم للحزن بسبب خطيئة اقترفْتَها أو بسبب حالتك الروحية حينما تكون ضعيفة أو جافة أو متدهورة، فهنا يظهر فجأة ويطرح أمام عقلك فكرة اليأس، ولا يزال يحاصرك بها وخصوصاً لما تخفق في استعادة كيانك الروحي بعد عدة محاولات شخصية، فتقتنع - بحكم الواقع - أن لا مفر من اليأس، حينئذ تدخل في مجاله في الحال دون أن تشعر، وهنا يبدأ يجردك من بهجة الأمل والرجاء. ثم هو لا يكتفي بذلك، لأنه شرير جداً، بل يمعن في جذبك أكثر إلى عمق الظلام حتى تستسلم نهائياً وتفقد كل ثقة بنفسك وكل ثقة بالله، ثم يصور لك بغضة نفسك وبغضة الله وبغضة الناس حتى يضمحل في قلبك كل معنى للحياة ويجعلك تستهين بالموت: «ذاك كان قَتّالاً للناس من البدء» (يو٨: ٤٤).

ولكن بأقل صلاة وبأقل دعاء باسم الله، يمكنك أن تحس بالخطر وتشعر بالفخ، وحينما تعود بقلبك إلى الرب تجده أمامك في انتظارك فاتحاً يديه وقلبه متغاضياً عن كل خطية، وحينئذ تلقي بفكرة اليأس خارج عقلك فتمزق شباكه وتخرج من الظلمة إلى نور الرجاء وتستعيد كيانك العقلي وحريتك مرة أخرى.

ويمكن تطبيق هذا الكلام تماماً على استغلال الشيطان لتوافُق المناسبة بين كافة الانفعالات الطبيعية، نفسانية كانت أم جسدية أم روحانية، وبين الانفعالات غير الطبيعية الشريرة، حتى يندفع الإنسان من الأولى إلى الثانية بسهولة مستخدماً شدة المناسبة بينهما.

فهو يستخدم فرص الفرح والمسرات الجسدية، ويستميل العقل والنفس للتمادي والاستغراق فيهما حتى يسقط الإنسان بالنهاية في الملذات الحرام: «وهذه الأمور حدثت مثالاً لنا حتى لا نكون نحن مشتهين شروراً كما اشتهى أولئك... كما هو مكتوب جلس الشعب للأكل والشرب **ثم قاموا للعب، ولا نزن كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً**» (١كو١٠: ٦-٨).

كذلك يستخدم فرص النجاح أو الغنى أو الرئاسة للانتقام والتجبر والظلم ونسيان الله، كما يستخدم الفقر أو العوز والوقوع تحت الظلم في تسهيل التذمر على الله واليأس حتى إلى صغر النفس أو السرقة والاختلاس.

كذلك ينتهز المناسبة الطبيعية التي تربط بين الغرائز بعضها ببعض وفسيولوجية تحركها ونشاطها. فالمعروف أن اللذة تركيب طبيعي نفساني وهي تتحكم في الغريزة الطبيعية وتدفعها إما للعمل وإما للتوقف.

فلذة الطعام (الشهية) هي التي تنشط غريزة الأكل، فإذا فقد الإنسان شهية الأكل يستحيل عليه الأكل. وعلى نفس النمط تعمل اللذة كدافع للنوم والعمل والكلام والتبول والتبرز. وعلى وجه العموم تُعتبر اللذة، سواء من جهة أثرها على الجسد أو النفس أو الوجدان، هي العامل الأساسي الطبيعي الموهوب من الله لحفظ الكيان الإنساني نشيطاً فعالاً ناجحاً مثمراً. واللذة في وضعها الطبيعي تبقى نائمة غير نشطة حتى تستدعيها ظروف الحياة وحينئذ تبدأ عملها تلقائياً دون أي تفكير أو جهد.

كذلك فإن الغرائز لا تعمل فرادى أو مستقلة، بل هي مرتبطة في عملها ونتائجها بعضها ببعض ارتباطاً شديداً، فغريزة حب البقاء مرتبطة بغريزة التناسل، وغريزة التناسل مرتبطة بغريزة الأكل، وغريزة الأكل مرتبطة بغريزة حب القتال، وغريزة القتال والجري والسعي وراء الرزق مرتبطة بغريزة الغضب، وهكذا. ولكن الشيطان لم يفُتْ عليه أن يدس إصبعه بين هذه الغرائز، في علائقها التي تربطها بعضها ببعض، أو في الرباط الطبيعي الذي يربطها باللذة الطبيعية.

فأول كل شيء وأخطره يحاول الشيطان أن يفصل اللذة عن الغريزة ليجعل من اللذة عملية قائمة بذاتها. فبدل أن تكون شهية الأكل حسب وضعها الطبيعي لتسهل عملية الأكل فقط يحاول العدو أن يفصل شهوة الأكل عن غريزة الأكل بأن يستثيرها استثارة مصطنعة. فبدل أن كانت شهوة الأكل تأتي طبيعياً نتيجة جوع طبيعي تحسه المعدة محلياً، يبدأ الشيطان يستخدم طريقاً آخر غير طبيعي لاستثارة الجوع، وهو العقل -

المعتبر المدخل المناسب الوحيد للتأثيرات الشريرة - فيسلط العدو تصورات وأفكاراً مناسبة للأكل، فيثير شهوة الأكل في الإنسان بالرغم من أن المعدة لا تكون آنذاك في حاجة للأكل أو تكون قد أخذت كل كفايتها الطبيعية.

ويظل العدو يتابع تأثيره على العقل لإثارة شهوة الأكل حتى تفقد شهوة الأكل تناسُبها الطبيعي مع غريزة الأكل، فيفقد الإنسان التوازن الطبيعي بين شهوة الأكل وكمية الأكل المطلوبة وأنواع الأطعمة، فيطلب الأكل في غير مواعيده ويأكل أكثر من حاجته، ويطلب أنواعاً غير لازمة له، وشيئاً فشيئاً تنتقل لذة الأكل من المعدة إلى العقل فيصاب الإنسان بجنون الأكل: «لأن كثيرين يسيرون ممن كنت أذكرهم لكم مراراً والآن أذكرهم أيضاً باكياً وهم أعداء صليب المسيح، الذين نهايتهم الهلاك الذين **إلههم بطنهم ومجدهم في خزيهم**» (في٣: ١٨، ١٩).

ويمكن تطبيق هذا الكلام تماماً على الشهوة الجنسية التي إذا انفصلت عن حاجة الطبيعة تبتدئ تتسيطر على الفكر حيث يُصاب الإنسان بالنهاية بـ«الجنون الجنسي».

وعلى هذا النمط يستطيع الشيطان بتأثيراته العقلية أن ينقل كافة أنواع اللذة الطبيعية من أماكنها العضوية الجسدية ومن خضوعها الطبيعي لحاجات الجسد وظروفه الفسيولوجية الهادئة، إلى العقل حيث يستطيع أن يثيرها باستمرار وبدون مناسبة طبيعية، ويشعل الجسد كله بالشهوات إشعالاً هادماً مدمراً. لأن من المعروف أن استنزاف إحدى الغرائز يؤثر تأثيراً ضاراً على بقية الغرائز الأخرى؛ فكثرة الاشتعال بشهوة الأكل

تثير الغريزة الجنسية، والانشغال بشهوة الجنس يُفقد الإنسان حيويته واتزانه وهكذا.

وكل هذا الاختلال الخطير الذي يتعرض له الإنسان في كافة أنواع الغرائز ولذاتها هو بسبب قبول الإيحاءات الفكرية التي يلقيها الشيطان في عقل الإنسان ليثير شهواته وملذاته إثارة غير طبيعية، حتى يُفقدها اتزانها ونسبتها الطبيعية وغايتها المباركة التي غرسها الله في طبيعتنا من أجل اتزان الحياة ودوامها!

لذلك يلزم للإنسان جداً أن يتحفّظ، بنقاوة عقله وتفكيره، ويرفض أية إثارة عقلية من جهة أي شهوة أو لذة؛ فالشهوات الطبيعية واللذّات الغريزية ينبغي أن يختم عليها لتبقى نائمة في أعضائها الطبيعية لتعمل فقط بمقتضى حاجة الجسد وظروف الحياة الطبيعية.

ثانياً: عنصر المفاجأة:

هذه إحدى الوسائل التي يستخدمها الشيطان في إسقاط فريسته، وخصوصاً إذا كان الإنسان قد بدأ يقاوم ويسهر على نفسه من التأثيرات الشريرة التي يسوقها عليه، فالشيطان حينما يعجز عن استخدام حيلة "المناسبة" يبدأ بحيلة "المباغتة".

وهو يستخدم في ذلك كافة الحواس لتثير عقلك إثارة مفاجئة، إما باستخدام الصور أو المناظر أو الأصوات أو الرائحة أو اللمس أو الذوق أو القراءة أو الأخبار أو الأفكار المفاجئة أو الغضب؛ حيث هنا يكون تأثير الحواس على العقل شديداً وسريعاً، لأن مراكز الحواس كلها متجمعة في المخ. ففي لحظة وجيزة تستطيع الحواس أن توقف التفكير

وتشعل العقل بالغريزة. وهنا يضع الشيطان إصبعه لينحرف بالغريزة لتعمل تحت تأثيرات شريرة يبثها العقل. كل هذا يتممه العدو في لحظة قصيرة، حتى لا يعطي للإنسان فرصة زمنية للتفكير أو المقاومة. والشيطان ينجح في إثارة الإنسان لارتكاب أبشع الخطايا وأفظعها للضمير أو للذوق الإنساني أو للرحمة باستخدام عنصر المفاجأة والمباغتة، فكثيرون ممن اقترفوا القتل أو السرقة أو الزنا أو الكذب كان عنصر المفاجأة الذي استخدمه الشيطان معهم هو السبب المباشر الذي أوقعهم صرعى تحت سطوته.

ثالثاً: عنصر المراودة:

إذا لم ينجح الشيطان في استخدام عنصر المفاجأة، يلجأ إلى عنصر المراودة. فهو يبتدئ يراود الإنسان من نحو الفكرة الشريرة سواء كانت للبغضة أو العداوة أو الانتقام أو الكذب أو السرقة أو الزنا أو القتل، وذلك بأن يذكِّره بخطايا شبيهة يكون قد اقترفها سابقاً أو تكون هي نفس الخطايا إنما بصورة مصغرة، وبذلك يُصوِّر له سهولتها أو ضرورتها أو لذتها ويحاصره باستمرار حتى يجعله يعيش عقلياً في جو هذه الخطيئة فترة طويلة حتى يعتادها، ثم شيئاً فشيئاً يجعله يتصور أنه اقترفها فعلاً. وهنا يزيد الضغط على العقل إلى أن يتوافق مع الفكرة الشريرة. وفي اللحظة التي تتم فيها هذه الموافقة المشئومة يدخل العقل تحت سلطة الشيطان وحينئذ يملي عليه الشيطان الخطية، ويمده بقوة شريرة للتنفيذ، حتى يباشر الإنسان الخطيئة وكأنه فاقد لكل إرادة ووعي وسلطان!

هذه المناورات يضعها الشيطان بخطط وجرأة أحياناً تفوق قدرة

الإنسان على الرؤيا والكشف والاحتمال. ولكن الله بالمرصاد داخل المعركة، يدخل في اللحظة الخطرة: «سمعان سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكي يُغربلكم كالحنطة، ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك» (لو٢٢: ٣١و٣٢).

رابعاً: عنصر التضليل: الفخاخ:

«ويجب أيضاً أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج لئلا يسقط في تعيير وفخ إبليس» (١تي٣: ٧). «فيستفيقوا من فخ إبليس إذ قد اقتنصهم لإرادته» (٢تي٢: ٢٦).

ليست الشرور تظهر دائماً شروراً. فالعدو له قدرة على تزييف الشر وإلباسه صورة الخير والحق، إذ له قدرة على تغيير شكله إلى شبه ملاك نور ليبشِّر بالصلاح الكاذب والبر الكاذب.

بهذا العنصر بالذات أصبحت الحرب مع العدو خطرة بالرغم من تفاهتها، لأن الفخاخ التي ينصبها يعطيها طبيعة الحق والصدق، ويستخدم فيها رجالاً لهم صورة التقوى وشكل البر: «ولا عجب، لأن الشيطان نفسه يُغيِّر شكله إلى شبه ملاك نور، فليس عظيماً إن كان خدامه أيضاً يُغيِّرون شكلهم كخدام للبر» (٢كو١١: ١٤و١٥).

ولكن الذين لهم روح الله لا يهابون خداع الشيطان ومكره وحيله وفخاخه، لأن كل أعماله يكشفها الروح القدس لهم في الحال: «لأننا لا نجهل أفكاره» (٢كو٢: ١١).

والعدو يلجأ إلى تضليل الفكر بوسائل كثيرة، إما باصطناع مقدمة من

الأفكار الصالحة والحث على الأعمال التي تبدو مقدسة، كما يقول بولس الرسول: «ولا عجب لأن الشيطان نفسه يُغيِّر شكله إلى شبه ملاك نور، فليس عظيماً إن كان خدامه أيضاً يُغيِّرون شكلهم كخدام للبر» (٢كو١١: ١٤-١٥)؛ ثم يبث فيه حرارة مصطنعة وغيرة مصطنعة ليقوم بأعمال لا تناسبه أو تفوق طاقته، وبعد ذلك يتخلى عنه فيسقط الإنسان من المستوى العالي الذي يكون قد بلغه، وحينئذ يصاب بألم ويأس، أو يبث في الفكر معرفة مزيفة لها صورة الحق ولكنها تحوي إيماناً فاسداً ويجعل الإنسان يتحمس لها ويناضل ويقاوم. وأخيراً ينكشف الأمر فيجد الإنسان أنه قد وقع في ضلالة: «ولكنني أخاف أنه **كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تُفسَد أذهانكم عن البساطة** التي في المسيح» (٢كو١١: ٣).

أو قد يوحي إلى العقل بمعرفة الأمور المستقبلة فيثق الإنسان في نفسه أنه قد بلغ إلى النبوة، فيبتدئ يتنبأ عن الأمور ويتعظم في نفسه، وبذلك يستولي الشيطان على الإنسان ويقوده في طرق غريبة ويورطه في مأزق، وأخيراً يتخلى عنه فيصير الإنسان هزأة عند نفسه والناس: «لأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال **حتى يصدقوا الكذب**، لكي يُدان جميع الذين لم يصدقوا الحق بل **سُرُّوا بالإثم**» (٢تس٢: ١١-١٢).

أو قد يلقي على العقل ظلمة كثيفة من جهة كلمة الله: «وحينما يسمعون يأتي الشيطان للوقت **وينزع الكلمة** المزروعة في قلوبهم» (مر٤: ١٥). فلا يجد الإنسان أية مسرة أو عزاء في كلام الإنجيل، فيبتعد عن قراءته أولاً، ثم يكره الاستماع إليه، ثم يهمله ويحتقره: «ولكن إن

كان إنجيلنا مكتوماً فإنما هو مكتوم في الهالكين الذين فيهم **إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين** لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح» (٢كو٤: ٣-٤).

هكذا يمكن للشيطان أن يضلل المؤمنين. لذلك يحث بولس الرسول تلميذه تيموثاوس أن يؤدب المقاومين بالوداعة ليتوبوا ويستفيقوا من فخ إبليس: «مؤدِّباً بالوداعة المقاومين عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق، **فيستفيقوا من فخ إبليس** إذ قد اقتنصهم لإرادته» (٢تي٢: ٢٦).

خامساً: عنصر التخويف:

«عندما يأتي العدو كنهر فنفخة الرب تدفعه» (إش٥٩: ١٩).

«إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو» (١بط٥: ٨).

يلجأ العدو في بعض الحالات إلى التأثير على العقل والإيحاء للنفس بأن الإنسان لن يستطيع الصمود أمامه ولا محالة من السقوط، وبذلك يجرِّد الإنسان من شجاعته وإرادته وحينئذ يُسقطه؛ في حين أن الشيطان لا سلطان له على الإنسان إطلاقاً إلا إذا قبل الإنسان مشورته بحرية إرادته: «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم **كأسد زائر يجول** ملتمساً من يبتلعه هو» (١بط٥: ٨). وبهذه الوسيلة يتسيطر الشيطان على إرادة الإنسان بدون وجه حق، ويوجهه كيفما يشاء؛ مع أن المسيح أعطى الناس، حتى وأضعف إنسان، السلطان على قوة العدو. فإن كان الشيطان كالأسد بالنسبة للإنسان الضعيف، إلا أنه أسد مهشَّم الأسنان مقصوص الأظافر فاقدٌ حرية الحركة، فهو لا يملك إلا الاسم والشكل والزئير فقط، لذلك فهو أضعف من أية مقاومة إيجابية: «قاوموا إبليس فيهرب منكم» (يع٤: ٧).

طبيعة سلاح الله الكامل[1]

«أخيراً يا أخوتي تقوَّوا بالرب وفي شدة قوته. البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس. فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم، على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويَّات. من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تقاوموا في اليوم الشرير، وبعد أن تُتَمِّموا كل شيء أن تثبتوا. فاثبتوا ممنطقين أحقاءكم بالحق، ولابسين درع البر، وحاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام. حاملين فوق الكل ترس الإيمان، الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة. وخذوا خوذة الخلاص، وسيف الروح الذي هو كلمة الله. مصلين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح، وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة وطلبة، لأجل جميع القديسين، ولأجلي، لكي يُعطَى لي كلام عند افتتاح فمي، لأُعلم جهارا بسر الإنجيل» (أف٦: ١٠-١٩).

لاحظنا أن الطرق الشيطانية التي يستخدمها العدو في جذب الإنسان للخطيئة تقوم كلها على عامل أساسي مشترك هو الخداع أو الغش الذي هو الصفة السائدة للشيطان التي كشفها المسيح لنا: «كـذَّاب وأبو الكذَّاب» (يو٨: ٤٤). وعلى أساس هذه الصفة الخطيرة التي تسلح بها العدو ضدنا اهتم المسيح جداً لكي يسلحنا ضد العدو بسلاح الله الكامل πανοπλία τοῦ θεοῦ . أما هذا السلاح الإلهي الكامل أو المتكامل فهو على أجزاء أو قِطَع قسمها بولس الرسول كالآتي:

أولاً: الحق

«تعرفون الحق والحق يحرركم» (يو٨: ٣٢). "فالحق" هو أول وأهم جزء من أجزاء هذا السلاح كما ذكره بولس الرسول: «اثبتوا ممنطقين أحقاءكم بالحق»، فالإنسان الذي يُخضع كل كفاءاته ومواهبه وقدراته للحق، فيمسك به فوق كل شيء، يستطيع أن يدخل حرب العدو باطمئنان لأنه لن ينخدع.

ثانياً: البر

وهو الجزء الذي يلي الحق. فمعرفة الحق تنشئ حتماً سلوكاً بالبر، ونحن لو فحصنا كل طرق العدو وحيله ومكايده نجدها تهدف في البداية نحو هدف واحد فقط هو: إسقاط الإنسان في الخطيئة. لأنه يعلم أن ذلك كفيل بتعطيل عمل ملكوت الله، كما يعلم أن بمجرد وقوع الإنسان في الخطيئة يصير تحت سلطانه. لذلك نجد أن الجزء الثاني أو القطعة الثانية من سلاح الله الكامل هي "البر" الذي هو: السلوك بلا لوم أمام الله والناس والتحفظ من أي خطيئة. وقد أعطاه بولس الرسول صفة "الدرع"، وهو الغطاء الذي يحمله المحارب لكي يقي الصدر والقلب. وهذا ينطبق جداً على قول الكتاب: «فوق كل تحفُّظ إحفظ قلبك» (أم٤: ٢٣).

ثالثاً: البشارة

يلاحظ أن طرق العدو كلها لا تخرج عن كونها محاولات شديدة لعرقلة استعلان ملكوت الله، لأنه يعلم أن اليوم الذي يكتمل فيه استعلان

ملكوت الله سيكون هو اليوم الذي سيلاقي فيه دينونته الرهيبة وهلاكه الأبدي. لذلك أصبحت خدمة البشارة هي الوسيلة الفعالة التي يتم بها سحق قوة الشيطان قليلاً قليلاً، ويتم بها هتك مملكة الظلمة التي سقط فيها كل الذين أعمتهم طرقه الملتوية وضلالاته وأمجاده الكاذبة: «أنا الآن أرسلك إليهم، لتفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله» (أع٢٦: ١٧، ١٨). لذلك تبرز أهمية القطعة الثالثة من السلاح الكامل، اللازمة لمواجهة هذه النية الخبيثة حتى لا يتعطل انتشار الملكوت واستعلانه «**حاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام**»، أي الاستعداد المتواصل للبشارة في كل حين وفي كل مكان «وإله السلام **سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً**» (رو١٦: ٢٠). وما معنى هذا؟ معناه أنه بواسطة المسير والكرازة تضمحل قوة الشيطان شيئاً فشيئاً تحت أرجل الكارزين والمبشرين!

رابعاً: الإيمان

بالفحص نجد أن كافة طرق العدو لا يوجد فيها وسيلة واحدة ثابتة أو مضمونة، فهي مجرد محاولات يتحسس بها الشيطان منافذ الإنسان لعله يجد مدخلاً إليه. لذلك وصفها بولس الرسول على أنها سهام متقدة ناراً يقذفها العدو من الخارج لعله يصيب بها الإنسان من أية ناحية.

لذلك نجد بولس الرسول يحدد القطعة الرابعة من السلاح بـ"ترس الإيمان" الذي يجعله المحارب فوق كل جسمه ليقي به نفسه من كافة الجهات. وهذا يعني أن يجعل الإنسان إيمانه بالله كلياً وعاماً، مستعداً أن يواجه به أي ضيقة أو محنة أو خسارة... وتكون ثقته في الله لانهائية

«**قاوموه راسخين في الإيمان**» (١بط٥: ٩).

خامساً: بهجة الخلاص

ثم نلاحظ أن كل طرق العدو يحاول بها جميعاً النفاذ إلى مقتل نهائي للإنسان عبر الخطيئة المتكررة، وذلك بأن يوقعه في "اليأس"، حينما يخيم على عقل الخاطئ بظلمة قاتمة لعرقلة قيام الإنسان من سقطته ويحجب عنه نور الرجاء الذي في المسيح، ويضغط نفسه بالحزن المفسد حتى لا تتسرب إليه أية مسرة روحية، حتى لا ينتعش وينتفض ويقوم.

لذلك اجتهد بولس الرسول أن يجعل القطعة الخامسة من سلاح الله الكامل هي "الخلاص" وشبَّهه بالخوذة التي توضع على الرأس، وهذا التشبيه دقيق لأن الخلاص كما وصفه إشعياء النبي هو بهجة فرح وسرور وإكليل الإنسان الذي يكلل رأسه: «ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنُّم، وعلى رؤوسهم فرح أبدي، ابتهاج وفرح يدركانهم» (إش٥١: ١١).

وكما أن المحارب يستحيل أن يغشى المعركة ورأسه عارية بدون خوذة، كذلك المسيحي يستحيل عليه مواجهة العدو دون أن يكون قد كلل رأسه بإكليل الخلاص وبهجته.

سادساً: كلمة الله

ثم نلاحظ أن العدو يستخدم الفروق والمناسبات الدقيقة بين الحق والباطل، والحق وشبه الحق لتزييف طريق الملكوت وتزييف نوع الجهاد اللازم وكميته ووقته، الأمر الذي يحتاج إلى دراية وانتباه شديدَين لوصايا المسيح

وأقواله. لذلك نجد بولس الرسول يجعل القطعة السادسة من سلاح الله الكامل «كلمة الله» التي شبهها بالسيف فأسماه «سيف الروح» الذي يستطيع أن يصرع العدو عند أول مهاجمة، لأن كلمة الله نفاذة كالنور أو كالسيف أو كالحق، تفضح الكذب وتكشف أقل درجة من الغش والخداع، الأمور التي يبثها العدو في طريق الإنسان وفي منهج تفكيره لتضليله.

سابعاً: الصلاة

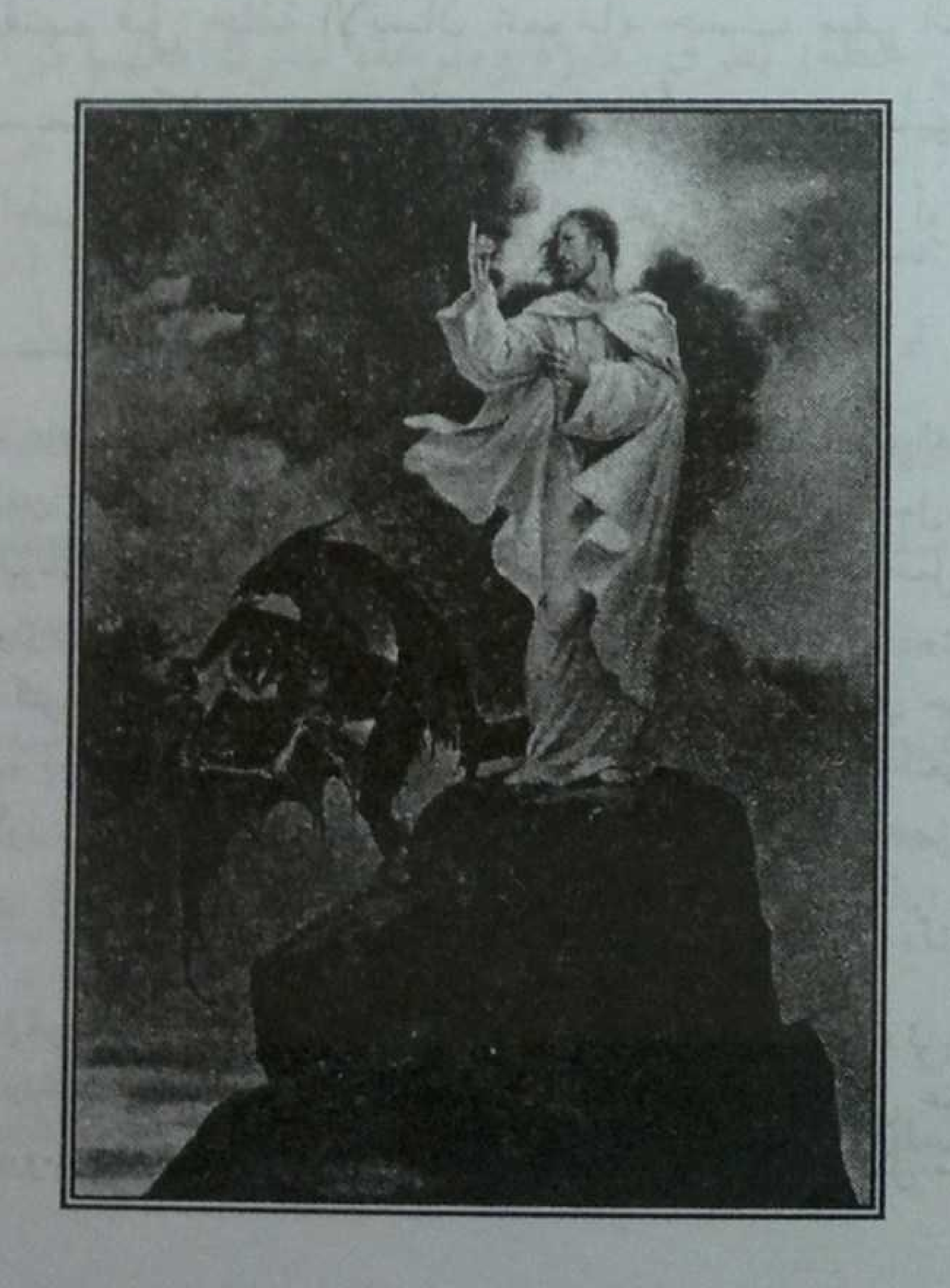
ثم نعلم تماماً أن العدو يستخدم ضعف طبيعتنا وينفذ إلى قلوبنا وفكرنا، سواء أثناء توانينا وإهمالنا الصلاة أو عندما نشعر بعدم كفاءتنا في الجهاد أو الخدمة أو الوعظ؛ فيجعلنا نضعف أمام المقاومة أو التجربة أو التهديد، حتى نلقى السلاح ونترك طريق الملكوت بلا حراسة.

لذلك يُبرز لنا بولس الرسول القطعة السابعة والأخيرة من سلاح الله الكامل وهي "الصلاة"، الصلاة كسهر وصراخ لطلب المعونة الشخصية أو لطلب مؤازرة الآخرين: «مصلِّين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح ساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة وطلبة لأجل جميع القديسين، ولأجلي لكي يُعطَى لي كلامٌ عند افتتاح فمي لأُعْلِم جهاراً بسر الإنجيل» (أف٦: ١٨-١٩). فإذا تذكرنا وصية المسيح حينما قال: «صلوا لكي لا تدخلوا في تجربة» و«اسهروا وصلوا»، علمنا علم اليقين أن الصلاة فعلاً هي الجزء الأعظم والأخير من سلاح الله الكامل، فالصلاة بمواظبة وسهر تربط كل أنواع الجهادات الأخرى وتجعلها قادرة أن تعمل معاً ضد العدو. فإذا اكتمل سلاح الله بالصلاة فحينئذ لا يمكن أن يقوى العدو أو يصمد أمام الإنسان: معرفة الحق، بشارة الإنجيل، إيمان، بهجة

خلاص، كلمة الله، وأخيراً صلاة وسهر.

والمتيقن لدينا بالبرهان الأكيد أنه يستحيل أن يدخل الشيطان في حرب مع إنسان يطلب ويجاهد من أجل ملكوت الله إلا ويكون الله مع هذا الإنسان، وعيناه تكونان عليه باستمرار حيث يتدخل في اللحظة الحرجة بقواته غير المنظورة لإنقاذ الإنسان.

«لم تُصِبْكُم تجربة إلا بشرية (أي في حدود قدرة البشر). ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تُجرَّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا» (١كو١٠: ١٣).



الفصل الخامس

أعوان المسيح وجنوده المخلصون
رؤساء الملائكة والملائكة القديسون

الملائكة والكنيسة والليتورجيا[1] الواحدة

أرواح مخلوقة للخدمة:

الملائكة عنصر أساسي في مملكة الله. وهي أرواح سماوية مخلوقة. وكانت خلقتهم قبل خلقة الإنسان عموماً، حسب سفر التكوين، الذي يعلمنا أن السماء وكل جندها خُلقت قبل الأرض وما عليها (تك٢: ١، ٤). وهذه الجنود السماوية مخلوقة لأنواع خِدَم متعددة: أولها تسبيح الله

(١) «ليتورجيا» λειτουργία كلمة يونانية كنسيَّة طقسية شائعة في الأسلوب الديني. وأصل تكوين الكلمة من مقطعين: «لاؤس» λαός أي شعب و«إرجون» ἔργον أي عمل. وتاريخ استعمال الكلمة في اللغة اليونانية قديم جداً من قبل المسيحية، فقد استُخدِمَت للتعبير عن عمل شعبي عام، وليس بالضرورة أن يكون دينياً.

ولكن بعد ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية في الترجمة السبعينية، دخلت الكلمة في حدود معنوي خاص لازمها بعد ذلك، وهو للتعبير عن خدمات الهيكل. وفي العصر الكنسي بدأ المعنى يتحدد أكثر في اتجاهين: المعنى الأول: ويشمل الخدمات الكنسية التي يشترك فيها الشعب، وبالأخص صلوات السواعي والتسابيح. والمعنى الثاني: ويشمل خدمة الإفخارستيا باعتبارها مركز كافة أنواع خدمات العبادة العامة.

ولكن الذي يهمنا من تحليل هذه الكلمة «ليتورجيا» هو وجود كلمة «لاؤس» في صميم تركيبها أي «الشعب». فـ «الخدمة الإلهية»، حسب طبيعة الكلمة وطبيعة فهمنا لها، هي عمل شعبي بالدرجة الأولى. أما الإكليروس فهو المتقدم والقائد، يحمل صوت الشعب إلى الله ويحمل سر الله وكلمته إلى الشعب.

تسبيحاً لا ينقطع، بأصوات لا تهدأ، بلغت بعض مقاطعها مسامع الإنسان نفسه، فتعلَّمها، وجعلها قراراً دائماً متكرراً لكل تسابيحه أمام الله: «قدوس. قدوس. قدوس» (إش٦: ٣)، «المجد لله في الأعالي» (لو٢: ١٤)!! وكذلك فبعضهم مُعيَّن لخدمة بني البشر العتيدين أن يرثوا الخلاص، المدعوين ليكونوا بني ملكوت ربنا (عب١: ١٤).

عبيد معنا:

لذلك ما أسعدنا نحن بني البشر بعشرة هؤلاء الملائكة القديسين، فهم الذين علمونا الأصول الأولى للتسبيح لله، أي أصل الليتورجيا بمعناها الجوهري كخدمة إلهية علنية وسرية بآن واحد. وهم الذين يؤازروننا كل يوم، بل كل لحظة، بطرق كثيرة ومنوعة، لندرك معهم ميراثنا وعملنا في ملكوت الله. لذلك فهم محسوبون كإخوة لنا «فخررت أمام رجليه لأسجد له، فقال لي: انظر لا تفعل أنا عبد معك» (رؤ١٩: ١٠)، وكأصدقاء، ثم كأعوان، وجنود حفظ مخلصين «ملاك الله حالٌّ حول خائفيه وينجيهم» (مز٣٤: ٧)، يشقون أمامنا طريق الخلاص، بكل جبرؤوت وسلطان، ضد الشيطان وجنوده، ويجاهدون معنا مقابل كل العثرات والتجارب التي تفوق طاقتنا. فالملائكة أعوان خلاص ونصرة، ومصدر قوة وتعزية لنا، لا كمجرد خُدَّام للملكوت، الذي افتتحه المسيح لحسابنا وحسب، بل وشركاء فيه. فهم محسوبون عنصراً إيجابياً وأساسياً معنا، في قيام واستعلان ملكوت الله ومجده: «لأنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس مضطرم بالنار، وإلى ضباب وظلام وزوبعة، وهتاف بوق وصوت كلمات استعفى الذين سمعوه من أن تُزاد لهم كلمة. لأنهم لم

يحتملوا ما أُمر به، وإن مَسَّت الجبل بهيمة، تُرجم أو تُرمى بسهم. وكان المنظر هكذا مخيفاً حتى قال موسى: أنا مرتعب ومرتعد؛ بل قد أتيتم إلى جبل صهيون، وإلى مدينة الله الحي، أورشليم السماوية، وإلى **ربوات هم محفل ملائكة، وكنيسة** أبكار مكتوبين في السموات، وإلى الله ديان الجميع، وإلى أرواح أبرار مكمَّلين، وإلى وسيط العهد الجديد يسوع، وإلى دم رش يتكلم أفضل من هابيل» (عب١٢: ١٨-٢٤).

ينـزلون ويصعدون:

وخدمة الملائكة لنا ومشاركتهم معنا في استعلان وقيام ملكوت الله أمر لازم جداً وأساسي، لا يمكن أن نستغني عنه، لأن الكنيسة مدعوة أن تنتقل كل يوم من الأرض إلى السماء، من أورشليم الحاضرة، المدينة الأرضية المستعبدة، مع بنيها، إلى أورشليم العليا الحرة، التي هي أمنا جميعاً، مدينة الملائكة وأرواح الأبرار.

فالملائكة رسل الطريق السمائي الحي، الذي كرسه لنا المسيح بجسده، الذي يتحتم أن نعبر به تحت إرشادهم، حتى نبلغ إلى السماء. فإن كان السلم الذي رآه يعقوب (تك٢٨: ١٢) يشير إلى جسد المسيح الذي نصبه الله بين الأرض والسماء ليرفعنا إليه بواسطته، فالملائكة الذين رآهم يعقوب وهم ينـزلون ويصعدون عليه هم بالحقيقة المرشدون، بوصفهم مواطنين سمائيين، استطاعوا أولاً أن ينـزلوا إلينا، بسبب اتضاع المسيح ونزوله إلينا، ثم هم يستطيعون أن يرتفعوا بنا إلى فوق، بسبب قيامة المسيح وصعوده، وبسبب مجد المسيح الذي فينا: «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٢). وهم مكلَّفون دائماً وفي كل لحظة أن

ينـزلوا إلينا ويصعدوا بنا، لينقلونا، شيئاً فشيئاً، من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح، ليرفعوا عقولنا ومشاعرنا وعبادتنا من ملكوت هذا الدهر الزائل المتغير والمتزعزع إلى ملكوت الله الحي الذي لن يتزعزع، ومن سيرة حسب تقليد واستحسان الناس إلى سيرة ملائكية سماوية، حسب مسرة الروح، ومشيئة الله.

وهكذا أصبحت خدمة الملائكة في الكنيسة الحاضرة عنصراً فعالاً ونموذجياً، لأن الإنسان مدعو أن يكون في صورته الملكوتية التي خُلق بها، ليعيش في النهاية بمقتضاها، على نمط ملائكي.

يسلموننا منذ الآن أسرار خدمة العرس السمائي:

إذن، فالسيرة الملائكية أمل حي لنا، نتطلع إليها منذ الآن ونرجوها، بل ونعيشها من خلال سر المسيح!! فإن كان الجسد الإلهي يفتح، بل قد فتح، طبيعتنا على طبيعة المسيح، فالملائكة نموذج حي لِمَا يمكن أن تكون عليه سيرتنا منذ الآن، كخدام تسبيح وتمجيد في ملكوت ربنا، ونحن نجاهد بمعونتهم أن نصير مثلهم. فالكنيسة حينما تقدم خدمة ليتورجيتها الآن لله، فهي في الحقيقة تدخل سراً في خدمة الليتورجية الأصيلة التي ترفعها الملائكة في السماء، وتشترك فيها، بسبب حضور الملائكة مع المسيح، أثناء تقديم الذبيحة أو التسبيح. فالملائكة هم عنصر مشترك في كل ليتورجية تُقدَّم لله هنا وهناك بآن واحد، ولا يمكن أن تقوم ليتورجية بدونهم، فهم خدَّام رسميون وأصليون للعرس السماوي. والصورة التي رسمها لنا بولس الرسول، في سفر العبرانيين، تنطق بهذه الحقيقة، حينما يكشف عن مركز الملائكة في مدينة الله الحي: أورشليم السماوية،

وكيف يكونون فيها محفلاً خاصاً: «ربوات هم محفل ملائكة».

وكذلك يؤكد أيضاً يوحنا الرسول، على مدى سفر الرؤيا، مركز الملائكة القيادي في التسبيح والخدمة وتكميل مقاصد الله تجاه الكنيسة، إلى أن تبلغ ملء وضعها السمائي.

الكنيسة تتحول إلى طقس ملائكي:

حينما بدأت الخدمة الإلهية في الهيكل قديماً على أيدي الكهنة واللاويين، من تسبيح، وإنشاد، وتقديم ذبائح وبخور وصلوات، كانت هذه في الواقع أول صورة مجسَّمة تمثل خدمة الملائكة أمام العرش السمائي غير المنظور، ولكن تطورت هذه الصورة، وذلك بتجسد ابن الله، وظهور الملائكة فعلاً وقت ميلاده "كأشابين"، وفي تجربته "كخدام"، وفي صليبه "كحُفَّاظ على الجسد"؛ إلى أن استُعلنت الكنيسة كجسم إلهي، حي، منظور، يتحرك وينطق وينمو بالروح القدس، في أشخاص القديسين، حيث تكاملت فيها الخدمة الملائكية على واقع بشري، بتقديم الذبيحة السرية غير الدموية، المستمدة من الجسد السمائي مع التسابيح والشكر. كل هذا حقق الخدمة الملائكية حول الحضرة الإلهية، على واقع حي مجسم على الأرض.

فالكنيسة الآن هي استعلان لحقيقة السماء من حضرة إلهية وخدمة ملائكية، إنما على مستوى إنساني في تواضع الرؤيا الملموسة، حيث يتراءى الناس كمواطنين سماويين بشبه الملائكة حقاً وعملاً، حتى أن منهم من آثر أن يتخذ الطقس الملائكي بالفعل، بكونهم لا يزوِّجون ولا يتزوَّجون (مت٢٢: ٣٠)، ليتفرغوا تماماً للشكر والتسبيح بغير فتور!

فالكنيسة، الآن، بسبب دخولها ضمن مجال الله، بذبيحة المسيح، تداخلت بالتالي في مجال الملائكة، وكما أخذت صورة الإلهي، أخذت صورة الملائكي... حيث الذبيحة والأسرار والتسبيح الروحي، مركز تحوُّل وانتقال وتجلي، مما هو أرضي، إلى ما هو سمائي، ومما هو مادي، إلى ما هو روحاني وملائكي صرف. ألسنا نحن الآن ومن داخل الكنيسة محسوبين مواطنين سماويين، أبناءً لأورشليم العليا، أمنا الحرة (غل٤: ٢٦)؟

إفخارستيا واحدة:

وبواسطة المسيح المتجسد في طبيعتنا، والعائش معنا، وفي وسطنا، انتقلت إلينا الخدمة الملائكية، تداخلنا فيها وتداخلت فينا، لأننا كلينا – الكنيسة وطغمة الملائكة – أصبحنا خدام حضرة إلهية، إلى الدرجة التي فيها يتراءى كلٌّ من الفريقين، أي الملائكة والكنيسة، وحدة متكاملة للخدمة، يكمل كل منها خدمة الآخر أمام العرش، بصورة غير قابلة للتجزئة قط، كما يوضحها سفر الرؤيا. فالكنيسة الروحانية يمثلها في السماء الأربعة والعشرون قسيساً، الذين يحيطون بعرش الخروف، ويتبادلون مع الملائكة نفس كلمات الخدمة والتسبيح. ومن الأمور الهامة والملفتة للنظر جداً، أن كلمة "الشكر" وكلمة "البركة"، اللتين يسبح بهما كل من الملائكة والأربعة والعشرين قسيساً بقولهم: «لك المجد والكرامة **(والشكر)**» هي هي كلمة "الإفخارستيا" في الأصل اليوناني، بمعنى أن الكنيسة ليست وحدها التي تقدم الإفخارستيا، أي ذبيحة الشكر والتسبيح، بسبب الخلاص الذي حصلت عليه؛ بل والملائكة أيضاً باعتبارهم خدام هذا الخلاص أيضاً.

مخلَّصون وخُدَّام خلاص:

ولكن نقف هنا لحظة مدهوشين أمام منظر هؤلاء الأربعة والعشرين قسيساً، ممثلي الكنيسة الروحانية الخادمة في السماء، إذ بينما نجد الملائكة واقفين يغطون وجوههم أمام العرش، نجد الكهنة جالسين على عروش من حول العرش الأعظم، وفي أيديهم مجامر مملوءة ببخور الصلوات، ولابسين أكاليل على رؤوسهم. فهم، إذن، كهنة وملوك معاً، أي كهنوت ملوكي. وهنا يتم بالعمل وبالفعل قول الكتاب: «وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة شعب اقتناء» (١بط٢: ٩). وهنا نلاحظ الفارق الكبير بين رتبة المخلَّصين (الكنيسة)، ورتبة خادمي الخلاص (الملائكة). ولكن في لحظة يتساوى الجميع أمام مجد المسيح الجالس على العرش، حينما يقوم الكهنة من على كراسيهم، عندما يتراءى المسيح في الوسط، ويخلعون أكاليلهم، ويطرحونها عند رجلي المسيح، ويخرُّون ويسجدون بكل خشية وتعظيم وصراخ، مع الشكر.

فإن كان الخلاص الذي أكمله لنا المسيح، بجسده ودمه فينا، يرفع رتبتنا فوق الملائكة، فمجد المسيح، عندما يظهر، فإنه يساوي بين كل الخليقة في الاتضاع والخدمة والتسبيح!! «أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء» (رؤ٤: ١١).

اهتمام زائد بخلاصنا:

وفي موضع آخر، يكشف لنا الكتاب المقدس كيف أن الملائكة تبدو أشد اهتماماً وقلقاً على خلاصنا وعلى عهد الله الجديد معنا، وكأنها مسئولة عن ذلك الخلاص!! وذلك حينما يقف ملاك، يصفه الكتاب بأنه

«قوي»، يعلن تحدِّيه لكل الخلائق الروحانية والملائكة حتى الشياطين أن يتقدم من يستطيع أن يفك ختم قضاء الله، الذي صار ضد الإنسان، بسبب عصيانه لله، ويفتح كتاب عهد الله الجديد معنا (رؤيا٥). وهذا كله جعل يوحنا الرسول يبكي، عندما صمتت الخليقة الروحانية كلها خازية وخجلانة:

-«ورأيتُ على يمينِ الجالسِ على العرش سفراً مكتوباً مِن داخلٍ ومِن وراء، مختوماً بسبعة ختوم. ورأيتُ ملاكا قوياً ينادي بصوت عظيم: "مَن هو مستحق أن يَفتَحَ السفر ويفكَّ ختومه؟" فلم يستطِع أحدٌ في السماءِ ولا على الأرضِ ولا تحت الأرضِ أن يفتح السفر ولا أن ينظر إليه. فصرت أنا أبكِي كثيراً، لأنه لم يوجد أحد مستحِقًا أن يفتح السفر ويقرأهُ ولا أن ينظر إليه.» (رؤ٥: ١-٤).

فرح الملائكة بخلاصنا:

ولكن حينما استُعلن في السماء اكتمال عملِ المسيح، الأسد الخارج من سبط يهوذا، الغالب على الصليب، وكيف ذُبح من أجل خلاص العالم، ودَحَرَ الشيطان، ومزَّق صك خطايانا على الصليب، صار تهليل وفرح في السماء متساوٍ بين الكهنة ممثلي الكنيسة الروحانية وبين طغمة الملائكة:

-«ورأيتُ فإذا في وسطِ العرش والحيوانات الأربعة وفي وسط الشيوخ حملٌ قائمٌ كأنه مَذبوحٌ، لهُ سبعة قرون وسبع أعْيُنٍ، هي سبعةُ أرواحِ اللهِ المرسلة إلى كلِ الأرضِ. فأتى وأخذ السفر مِن يمينِ الجالسِ على العَرشِ. ولَمَّا أخذَ السفر خرَّت الأربعةُ الحيوانات

والأربعة والعشرون شيخاً أمامَ الحملِ، ولهم كل واحد قيثاراتٌ وجاماتٌ مِن ذهب مملوَّةٌ بخوراً هي صلواتُ القدِّيسينَ. وهم يترنَّمُونَ ترنيمةً جديدةً قائلينَ: "مستحقٌّ أنتَ أن تأخذ السفر وتفتح ختومه، لأنَّكَ ذبحتَ واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأُمَّة، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنةً، فسنملكُ على الأرضِ"». (رؤ٥: ٦-١٠)

وكأنما الملائكة أصحاب مصلحة عظمى من وراء خلاصنا، أو كأن خلاصنا هو هو مسرتهم ومنتهى رجاء خدمتهم!! «ونظرتُ وسمعت صوت ملائكة كثيرين حَوْلَ العرش والحيوانات والشيوخ، وكان عددهم ربوات ربواتٍ وألوف ألوف، قائلين بصوت عظيم: مستحق هو الحَمَل المذبوح أن يأخذ القُدْرَةَ والغِنَى والحكمة والقوة والكرامة والمجد و"**البَرَكَة**" (وهي نفس كلمة الشكر= الإفخارستيا)» (رؤ٥: ١١-١٢).

ونلاحظ هنا أن هذه الترنيمة الخالدة التي تقدَّم للمسيح من الملائكة والشيوخ معاً، كأنشودة دائمة إلى الأبد، هي تعبير عن الفرح والاعتراف بالجميل للمسيح، الخروف المذبوح من أجل الإنسان وفداء الخليقة كلها. وفيها ينكشف بكل وضوح نجاح مهمة الملائكة الذين وُضع عليهم أدوار ومهام ومسئوليات سرية لا عدد لها، منذ البدء، لتكميل خلاص الإنسان، حتى أنهم بعد أن تحقق نجاحهم بانتصار المسيح؛ حقَّ لهم، كأعضاء رسميين دائمين في ملكوت المسيح، أن يشكروا ويسبِّحوا للمسيح، الذي أكمل سعيهم ورجاءهم.

ويلذ لنا هنا ونحن بصدد الحديث عن فرح الملائكة بنصرة المسيح،

الوديع، الخروف المذبوح، والفادي، أن نلمِّح عن الملاك الساقط، الذي يصفه سفر الرؤيا دائماً بالوحش المفترس والمدمر والمؤذي، الذي طالما حارب وقاوم إخوته الملائكة، وعطَّل أعمالهم وخدماتهم، وطالما أغوى آخرين منهم وأسقطهم. فهنا ينحاز الملائكة القديسون إلى المسيح القائم في الطبيعة البشرية، ويفرحون بغلبته ضد أخيهم الذي من بني جنسهم، عدوهم الساقط من رتبة القداسة.

أنظمة وخوارس:

ومن روائع ليتورجيا التسبيح الملائكي أمام العرش السمائي، التدرج المبدع في نظام الخوارس ودرجاتها. فإن دقَّقنا في الأصحاحين الرابع والخامس من سفر الرؤيا، حيث تبتدئ الليتورجيا السمائية وتنتهي، نجد أن المنظر ينكشف عن حالة تسبحة دائمة، كأساس لليتورجيا، لا نعرف مبدأها، وهي التي يقدمها الأحياء القديسون الأربعة، وهم المعتبرون أعلى درجات الملائكة حاملي العرش. وقد عرفنا أحد مقاطعها القائل: «قدوس. قدوس. قدوس الرب الإله القادر على كل شيء الذي كان والكائن والذي يأتي» (رؤ٤: ٨)، وهي تسبحة العرش التي تفيد أبدية الله وأزليته، وتكشف سر مجيئه في شخص المسيح. ثم يليها تسبحة الكنيسة الروحانية المالكة في ملكوت المسيح، منذ الأزل، حسب قصد الله ومشيئته، والممثَّلة في القسوس الأربعة والعشرين، المتوَّجين، والجالسين على عروشهم، ويقدمون بخور صلوات القديسين. وقد عرفنا مقطعين من تسبحتهم الخالدة:

المقطع الأول: «أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة،

لأنك أنت خلقت كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة» (رؤ٤: ١١).

والمقطع الثاني: حينما «يترنمون ترنيمة جديدة قائلين: مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه، لأنك ذُبحتَ واشتريتَنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة، فسنملك على الأرض» (رؤ٥: ٩، ١٠).

ثم يليها منظر عجيب، حيث ينضم خورس الأحياء الأربعة العظام، مع خورس جميع صفوف الملائكة القديسين، مع خورس الأربعة والعشرين قسيساً، وتتحد أصوات الجميع في تسبحة واحدة مشتركة بصوت عظيم، عرفنا منها المقطع القائل: «مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة» (رؤ٥: ١٢).

ويلي ذلك منظر أخير مدهش، حيث تنضم جميع الخوارس السابقة مع باقي الخليقة كلها، سواء التي في السماء، أو التي على الأرض، أو التي تحت الأرض (كناية عن الخليقة المائتة المحبوسة في الهاوية)، أو التي على البحر، مع كل ما فيها جميعاً، حيث ينشد الجميع بلا استثناء تسبحة واحدة، كما من فم واحد، أمام الخالق والفادي معاً، عرفنا منها المقطع القائل: «للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ٥: ١٣).

وحينما تكمل التسبحة، يختمها الأحياء الأربعة العظام، حاملو العرش بكلمة: «آمين»، وكأنهم يعطونها ختم التصديق، ليكون لها الكفاءة والقدرة، لتدخل إلى حضرة القدير. والعجب أنه بعد كلمة «آمين»، نجد القسوس يخرُّون ويسجدون أمام الجالس على العرش والخروف. وهنا

تظهر الكنيسة الروحانية كمسئولة عن ختام الليتورجيا السمائية، باعتبارها - أي الكنيسة - منتهى قصد الله في الخليقة... وهي تعبِّر بدلاً من «آمين» التي ينشدها الملائكة بأفواههم، بالسجود الذي تقدمه جسدياً[٢]: «وكانت الحيوانات الأربعة تقول آمين، والشيوخ الأربعة والعشرون خرُّوا وسجدوا للحي إلى أبد الآبدين» (رؤ٥: ١٤). وهنا يظهر مرة أخرى التوافق البديع في ملكوت الله بين الملائكة والكنيسة معاً، كخدام ليتورجيا واحدة!!

الكنيسة تكمِّل عمل الملائكة:

وبهذه المناسبة حينما نعود إلى الواقع العملي الآن، نجد أن صلاة «أبانا» تشير إلى هذه الحقيقة عينها، حينما نقول: «ليتقدس اسمك... كما في السماء كذلك على الأرض»، حيث «كما في السماء» تشير إلى ليتورجية تسبحة الملائكة الدائمة في السماء: «قدوس. قدوس. قدوس»، بغير سكوت؛ أما كلمة «كذلك على الأرض» فتفيد مسئولية الكنيسة في تسبيح وتقديس اسم الله على الأرض، في القداس، وفي صلوات النهار والليل، على التوالي، لتكتمل وتستمر الليتورجيا الواحدة في السماء والأرض معاً من أفواه الملائكة، وبني البشر القديسين، والأتقياء جميعاً.

ليتورجيا صفاء قلبي:

فإذا حاولنا المقارنة بين طقس الليتورجيا الملائكية في السماء، مع

(٢) يلاحظ أيضاً أن خدمة القداس (الليتورجيا) يلزم أن تنتهي بكلمة آمين يرددها المرنمون، وفي الختام كله يسجد الكاهن أمام المذبح.

مثيلتها في الكنيسة على الأرض، من حيث تسبيح وتقديس اسم الله، نجد أن تسبحة الملائكة هي في ذروة الانسجام، بسبب الأُلفة والخضوع والطاعة العظمى التي تربطهم برئاساهم. فقد قيل عنها إنها «كما من فم واحد»، وذلك بالرغم من تعدُّد الخوارس والرتب وعظم الأعداد التي تقدَّر بالملايين (ربوات ربوات= ١٠٠٠٠×١٠٠٠٠).

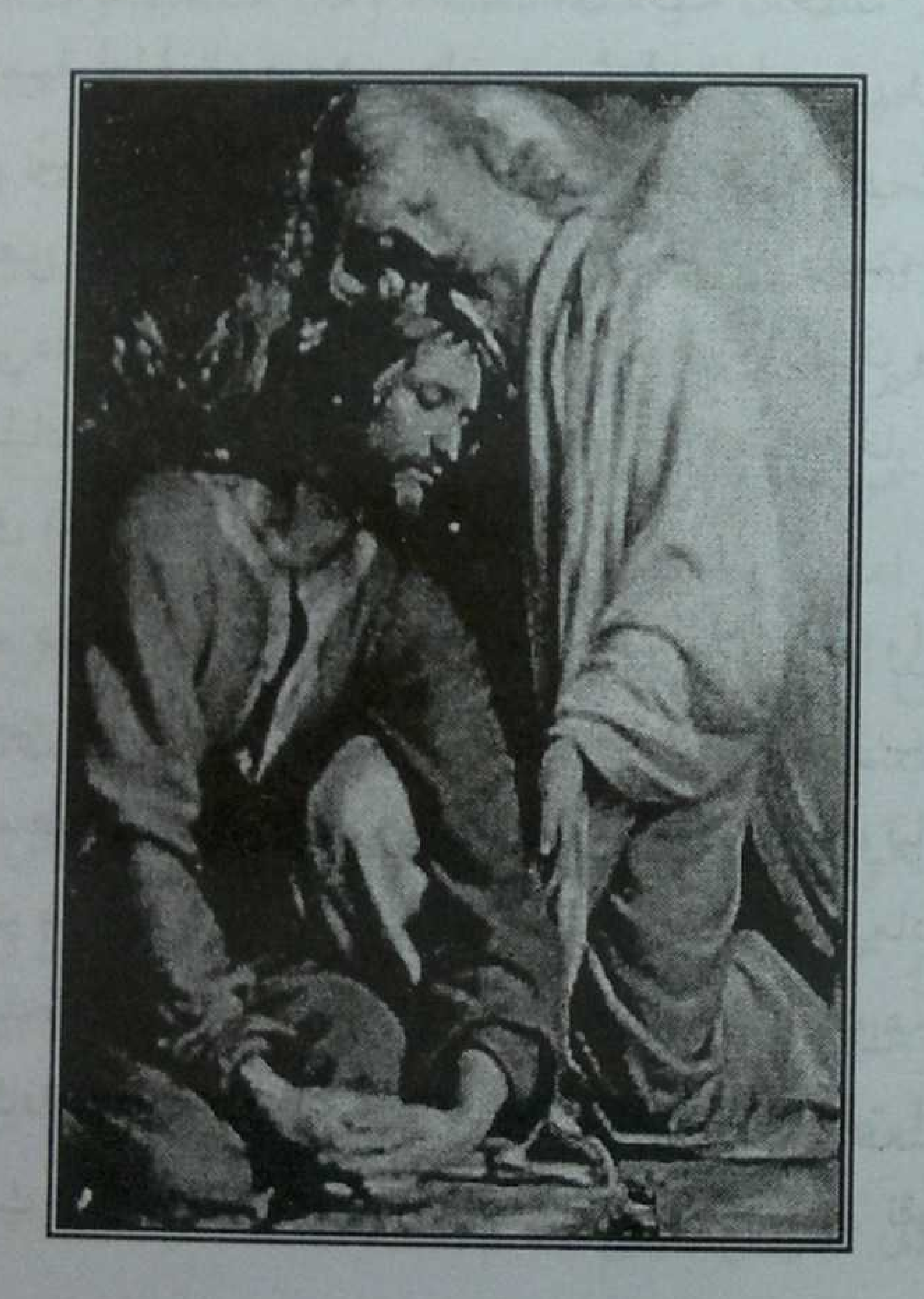
كذلك فإن الليتورجيا الملائكية تخلو تماماً من آلات ضبط النغم (الدف)، لأن الأصوات الملائكية صافية غاية الصفاء، كما جاء في قداس القديس يعقوب "بأصوات صافية"، حيث الصفاء هنا لا يفيد الجمال والحلاوة، بل الوضوح والشفافية، التي تُظهر الخشوع والتقوى الخالصة. ولذلك فإنه كلما كانت الخوارس التي في داخل الكنيسة تربطها الأُلفة والخضوع والطاعة، وكان أفرادها المرتلون متقدمين في الوضوح الروحي والشفافية الروحية، التي تُظهر من وراء الألحان خشوعهم وتقواهم؛ كلما انعدمت الحاجة إلى آلات ضبط النغم، أو بعبارة أخرى: كلما اقترب طقس المرتلين في الكنيسة من الحياة الملائكية، كلما انسجمت أصواتهم وانعدمت الحاجة إلى الضوابط الملازمة لضبط النغم.

ومعروف بكل يقين أن الكنيسة الأولى كانت تحرِّم استخدام الآلات الموسيقية في التسبيح والصلاة، مع أن العبادة اليهودية في الهيكل التي استقت منها الكنيسة الأولى ترتيب صلواتها والكثير من مقاطع تسابيحها، كانت كل أصناف الآلات الموسيقية تكوِّن جزءاً أساسياً هاما فيها؛ بسبب أن الكنيسة المسيحية الأولى كانت تعتمد في تسبيحها على الانسجام والإلهام الروحي والأُلفة العظمى التي كانت تربط المؤمنين، فكانت هذه الأُلفة الروحانية توحِّد أصواتهم، وتعطيها الهارموني

الإعجازي بشبه الملائكة.

وهذا يكشف لنا عن سر خطير، فالكنيسة الأولى أعطت أورشليم الأرضية ظهرها بهيكلها وألحانها وموسيقاها، وانطلقت تعيش منذ الآن في أورشليم العليا، أورشليم الملائكة وأرواح الأبرار المكمَّلين بالمجد حيث تتحد أصوات الكنيسة بأصواتهم كل حين، في كل صلاة، فتتصفى وتنسجم. أو بعبارة أخرى نستطيع أن نقول، إن الكنيسة تستمد من الملائكة انسجام ألحانها وصفائها، وليس من آلات.

الخدمة في الكنيسة ينبغي أن تكون صورة من خدمة الملائكة.



الفصل السادس

ملكوت الله وملكوت الناس في مواجهة

«المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة».

هذه هي تسبحة الملائكة ساعة ميلاد المسيح، رنَّت أصداؤها بين السماء والأرض، وسمعها الرعاة المتبدُّون وهم يحرسون حراسات الليل على قطعان أغنامهم في برية بيت لحم، فهل من معنى واقعي لهذه التسبحة بالنسبة لعالم اليوم وهو يعاني من تمزق سياسي واجتماعي وعنصري لم يسبق له مثيل، حيث وقفت شعوب الأرض متخاصمة متنازعة يتربص بعضها ببعض، وقد انتزع السلام من بينهم، يقتتلون من أجل كل شيء، من أجل المال والأرض والأسواق والألوان والأجناس والأعراق والمبادئ والنظريات والتاريخ والدين والفضاء الخارجي وتلوث الهواء وأعماق المحيطات؟!

حتى العلم دخل في معركة الشعوب كعنصر للإرهاب وأداة للقتل والتدمير، وحتى المعرفة الخالصة، التي هي أصلاً وسيلة تقارب وتآلف، أصبحت بواسطة التمادي في التخصصات وسيلة تشتت وتباعد وتحزب بين الجماعات وبين العلماء أنفسهم، فالعالِم المتخصص في مادته أصبح جاهلاً تماماً بتخصص آخر في فرع آخر من نفس مادته! وهكذا يسير العالم كله بكافة ميادينه السياسية والثقافية والعلمية وحتى الدينية في انحلال وتفكك وتباعد مبدداً كل مذخراته وقواه ومواهبه. نقول هل من

واقعٍ ممكنٍ أن يتلمسه العالم اليوم في تسبحة الملائكة هذه: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة؟

السر الأعظم في تسبحة الملائكة:

واضح أنها المرة الأولى في تاريخ الإنسان التي فيها تخرج الملائكة عن صمتها الأبدي وتنطلق تُسبِّح بصوت مسموع ومفهوم داعية لتمجيد الله ومنبئة بسلام يكون على الأرض وسرور بين الناس، فما هو السر الكائن وراء هذه الظاهرة السماوية؟

واضح بلا شك أن سر هذه التسبحة وهذا التمجيد وهذا السلام والسرور الموعود به يتركز في ميلاد المسيح الذي صاحبته هذه المظاهر السماوية العجيبة. فميلاد المسيح، إذن، كان يعني شيئاً هاماً جداً وخطيراً بالنسبة للملائكة، بالنسبة لتمجيد الله في الأعالي، بالنسبة للسلام **على الأرض**، وأخيراً بالنسبة للسرور **بين الناس**.

ولكن ما هو هذا الشيء أو ما هي هذه الحقيقة الكامنة في ميلاد المسيح والتي اهتزت لها السماء هكذا؟؟ هنا نهاية كل سؤال، هنا الجواب الذي يستطيع أن يرد على كل تساؤل منذ بدء الخليقة وعن علة خلقتها حتى اليوم! فدخول يسوع المسيح إلى العالم آتياً من عند الآب ظاهراً في هيئة إنسان يعني بداية ظهور وعمل ملكوت الله على الأرض، الله ارتضى بهذا أن يظهر علانية على الأرض، ويستوطن ضمائر الناس والشعوب، يحكم فيها وعليها في شخص يسوع المسيح وبواسطته... الله بتجسد ابنه ينقل حكومته السماوية ظاهراً وملموساً في شخص ابنه من أعلى السماوات إلى الأرض، حتى يحكم بمشيئته «كما في السماء كذلك على

الأرض»!! وهذا النـزول والتنازل معاً هو الذي اضطر جوقات من الملائكة أن تنقل مركز خدمتها بالتالي وفي الحال من السماء إلى الأرض!!

ظهور ابن الله على الأرض كان يبدو أمام الملائكة مفهوماً بغاية الوضوح أن ملكوت الله امتد من عالم الملائكة إلى عالم الإنسان، لذلك تحتم عليهم أن يبدأوا أول خدمتهم على الأرض بمرأى من الناس كدعوة للاشتراك في ذات الخدمة!! وهذه هي أول مرة يُدعى فيها البشر للانضمام مع خورس ملائكة ليقدموا خدمة تسبيح مشتركة!

إن نقطة السر العظمى في هذه التسبحة المملوءة سراً ورجاءً تكمن في ربط خدمة تمجيد الله في الأعالي بتمجيده على الأرض، هنا الحدث الأعظم. الله دخل إلى عالمنا، الله صار معنا، في شخص المسيح (عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا). وهكذا انفتحت السماء على الأرض بكل أسرارها وأمجادها وخدامها وسلامها وسرورها، لأن ابن العلي صار معنا وفينا!! الله في شخص المسيح وبتجسده السري العجيب اتحد بصميم طبيعتنا الإنسانية، بصميم كياننا البشري. الله لم يعد يحكم علينا من فوق، بل صار يحكم فينا من داخل كياننا من داخل تفكيرنا وضميرنا، فالمسيح ابن الله دخل إلى العالم كملك وكصاحب ولاية على كل مُلك الله – أي ملكوته... الله سُرَّ أن يرسل ابنه ليملك فينا ملكوت السلام والسرور. الحديث مع بيلاطس زعيم الصالبين يكشف عن ترأُس المسيح على ملكوت الله: «أفأنت إذن ملك؟ أجاب يسوع: لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيتُ إلى العالم. مملكتي ليست من هذا العالم. مملكتي ليست من هنا» (يو١٨: ٣٧، ٣٦).

المسيح إذن جاء حاملاً ملكوت الله بكل قوته ومجده وسلطانه، حاملاً إياه في ذاته، في شخصه، في كيانه، في لحمه ودمه!!

المسيح لما دخل العالم دخل ملكوت الله معه إلى عالمنا. وعندما تجسد ابن الله، أي اتحد بجسد الإنسان، استودع ملكوته بالتالي جسد الإنسان. ملكوت الله دخل فينا، في طبيعتنا، في كياننا: «ملكوت الله داخلكم» (لو١٧: ٢١).

ملكوت الله دخل الطبيعة البشرية بصورة إلهية لما تجسد ابن الله، وقبلناه نحن منه بصورة سرية لما أكلنا جسده وشربنا دمه في سر الكنيسة.

ملكوت الله انتشر على الأرض ممثلاً في الذين قبلوا المسيح في كيانهم وأرواحهم قبول الأكل السري والشرب السري لكل كيان المسيح بجسده وروحه، العالم قَبِلَ في صميم كيانه ملكوت الله في أشخاص الذين آمنوا، ولن ينحسر ملكوت الله عن عالم الإنسان طالما يوجد على الأرض إنسان يأكل جسد المسيح ويشرب دمه.

وملكوت الله يتجدد كل يوم في أشخاص الذين يتجددون بالإيمان والحق والحب، وبقدر ما يخضع الإنسان لملكوت الله في القلب بالروح بقدر ما يخضع العالم ويتجدد.

طبيعة العالم الجديد في تسبحة الميلاد:

حينما رنمت الملائكة معاً ترنيمة الميلاد مبشرة بميلاد المسيح أعلنت ضمناً عن طبيعة مُلكه العتيد أن يكون على الأرض وبين الناس «سلام على الأرض وسرور بين الناس». السلام هنا يفوق طبيعة الأرض

ومسراتها ومباهجها وملذاتها وكل ما يوفره العالم من أمـان واطمئنـان مادي. والسرور هنا يفوق طبيعة الإنسان، يفوق العقل، ويسود على كل المحزنات، ويُخضع كل المظالم والآلام والأمراض لسلطان السرور الفائق.

فما هي طبيعة السلام الذي يعطيه المسيح للذين يعيشون في ملكوتـه «**على الأرض**»؟ وما هي طبيعة الفرح الذي يُدخله في القلوب ليكـون هو أساس العلاقة «**بين الناس**» بني الملكوت؟

الرد على ذلك غاية في البساطة والوضوح، فطبيعة كل شيء تستمد نوعيتها من معطيها، كما يقول الإنجيل، من جهة الينبوع المالح والينبوع العذب (راجع يعقوب ٣: ١١)، فكل منهما يعطـي مـاءً كطبيعتـه، وكذلك التينة والزيتونة والعنب والشوك والحسك، كلٌّ من هذه تعطي ثمراً كطبيعتها.

فالعالم يعطي سلاماً، ولكن أي سلام هو ومن أي طبيعة؟ فالعالم أول كل شيء متغيِّر متقلقل وبالنهاية زائل، هذا هو أساس طبيعة العـالم، وهو يبثها في صميم طبيعة سلامه الذي يعطيه لأولاد العالم. فمع الأمان والاطمئنان والسلام والهدوء والسكينة التي يمنحها يبث في أعماقها حتماً طبيعته، أي التغير والتقلقل ثم الزوال، فيستحيل على العالم استحالة قاطعة أن يعطي سلاماً دائماً أو هدوءاً مستمراً أو اطمئناناً كاملاً، فبعد السلام حرب لا محالة، وبعد الهدوء اضطراب، وبعد الاطمئنان انزعاج وكدر.

وكذلك الناس في مملكة الناس عندما يقيمون علائق الود والمسرة فيما "بينهم" نجدها مسرة قائمة حتماً على المنفعة المتبادلة أو المجاملة المتبادلـة أو التكريم المتبادل، أو الواجبات المفروضة، أو إلحاحات طبيعة الأمومة أو

الأبوة أو الأخوَّة، وكل هذه لا تضمن على الإطلاق سروراً دائماً ثابتـاً بين الناس، لأن هذه الدوافع أو العلل التي تصدر منها أو عنها علائق الود يمكن أن تتوقف في لحظة، وقد تنقلب إلى أشرس ما تكـون الـدوافع والعلائق فتنقلب المودة والمسرة إلى غم ونكد وأحقاد واضطهادات وتُهم وفضائح وانتقام بلا أي تعقل وبلا أي مبرر!! وربما بين الإخوة الأشقاء!!

هذه هي طبيعة ملكوت الأرض والناس!!

أما طبيعة ملكوت الله فهي ليست هكذا أبداً. فسلامها قـائم دائـم أبدي لا يمكن أن تزعزعه كل كوارث الأرض ونوائبها «إن سـرتُ في وادي ظلال الموت فلا أخاف شراً لأنك أنت معي» (مزمور٢٣)، «إلهنا ملجأنا وقوتنا ومعيننا جداً في شدائدنا التي أصابتنا، لذلك لا نخشـى إذا تزعزعت الأرض وانقلبت الجبال إلى قلب البحار» (مزمور٤٦ — حسب السبعينية). فالسلام الذي يعطيه الله هو كالله ومن طبيعـة الله يسـتمد صفاته، فهو سلام أبوي نابع من أبوة واحدة لكافة الناس ووطن واحد ربما يضم كافة الناس، لا يتغير، لا يتزعزع، لا يزول إلى الأبد. سلام الله لا يلغي الضيق بل يسود عليه، ويأخذ من صميم الحزن عظة تزيده سلاماً على سلام.

سلام الله لا يتجاوز التجارب كأنه حقنة مخدر، بل يحلل التجارب إلى أسبابها ومسبباتها، ويمتص منها عافية جديدة فيتقوى السلام في التجربـة وبعد التجربة.

سلام الله لا ينحصر في حيز خاص من المكان أو الزمان أو الـتفكير بعيداً عن أسباب ومواضع الغم والهم والنكد الذي ينسجه العالم للعائشين

فيه، بل يقتحم الهموم والمخاطر ويتقبَّل أخبار السوء بلا حذر أو خشية «لا يخشى من خبر السوء، قلبه ثابت متكل على الرب، قلبه ثابت فلا يتزعزع» (مز١١٢).

سلام الله لا يتجاوز المكان، كأن الأرض موضع الشقاء فقط والسماء للسلام، بل بروح التجلي يرى بنو السلام أن الأرض موطن السلام الحقيقي كالسماء تماماً طالما الله معنا وفينا «إن كان الله معنا فمن علينا؟» (رو٨: ٣١).

سلام الله لا يتجاوز الزمان، كأن الحياة هنا على الأرض كُتب عليها الشقاء والاضطراب، وقد حُجز السلام للحياة الأخرى، أبداً، فالسلام الدائم الحقيقي أصبح من صميم طبيعة هذه الحياة الدنيا لأن «**رئيس السلام**» الرب يسوع هو حياتنا على الأرض كما هو حياتنا في السماء. «أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠)، «سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا» (يو١٤: ٢٧).

وأما طبيعة الملكوت من حيث «المسرة بين الناس» فهي لا تقوم على المنفعة أو الكرامة أو المجاملة أو علائق اللحم والدم، التي هي كلها دوافع متغيرة ومتقلبة، بل هي مسرة أُخوَّة واحدة لأُبوَّة واحدة في وطن واحد يضم الأرواح قبل الأجساد!! فالمؤمنون بالمسيح في كل الأرض مستوطنون الله، الله وطن حقيقي لكل بني الملكوت على الأرض في كل ممالك الدنيا، لذلك ليس بينهم داعي نزاع وخصام، فالله هو أكلنا، هو شربنا، هو دفئنا، هو عزاؤنا، وسرورنا، هو كل شيء لكل مواطن عنده، الله الكل في الكل، والمسيح يملأ الكنيسة، والكنيسة على صغرها تملأ

العالم، تملأه حباً وسروراً.

في ملكوت الله ليس امتياز للرجل على المرأة، المرأة ليست من دون الرجل في شيء، ليس عبد للناس وحر، فالكل عبيد حب الله وأحرار في الخير فقط، ليس يوناني ويهودي، وبالمثل ليس زنجي وأمريكي، أو أسود وأبيض، ليس طاهر ودنس، مقبول ومنبوذ، ليس مواطن ولاجئ، ليس غريب وصاحب دار، فالكل نزلاء الله، وأهل بيت الله، الكل أحبَّة ومحبوبون «فَالْبَسُوا كَمُخْتَارِي الله القدِّيسين المحبوبين أحشاء رأفات، ولطفاً، وتواضعاً، ووداعةً، وطول أناة، مُحتملين بعضكم بعضاً، ومسامحين بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى. كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً. وعلى جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال. **ولْيَمْلِكْ في قلوبكم سلام الله الذي إليه دُعيتم في جسد واحد**، وكونوا شاكرين. لتسكنْ فيكم كلمة المسيح بغنى، وأنتم بكل حكمة مُعلِّمونَ ومُنذِرُون بعضكم بعضاً، بمزامير وتسابيح وأغاني روحية، بنعمة، مترنمين في قلوبكم للربِّ. **وكل ما عملتم بقول أو فعل، فاعملوا الكل باسم الرب يسوع، شاكرين الله والآب به.**» (كو٣: ١٢-١٧).

هذه صورة عملية صادقة لمختاري الله، بني الملكوت، المحبوبين المحبين، المسامحين، اللطفاء دائماً، المملوئين تواضعاً، الودعاء، طويلي الأناة، الذين يملك على قلوبهم سلام الله فيترنمون بنعمة الله وهم مسرورون دائماً ومربوطون برباط الحب، واسم المسيح في أفواههم وقلوبهم كل حين.

هذه هي سمات بني ملكوت الله، وإن كان الفرح هو طبيعة تفكيرهم وعملهم وعلائقهم، والسرور دائماً يقيم فيما بينهم، فلأنه ليس بينهم امتيازات ولا بينهم فوارق، لذلك لا امتيازات يتناحرون عليها ولا

فوارق تصدهم عن بعضهم البعض!! هذه هي طبيعة عالم الله الجديد، عالم الملكوت الذي أدخله المسيح على الأرض وفي الناس يوم ميلاده «على الأرض السلام وفي الناس المسرة».

طبيعة المسيح التي دخل بها العالم كملك السلام!

لم يكن دخول المسيح إلى العالم كملك بنوع السيادة الملزمة، أو على مستوى الحكم المطلق التعسفي «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلُص به العالم» (يو٣: ١٧).

والمسيح لم يولد في قصر كما يولد ملوك الأرض، ولم يباشر حكمه من فوق عرش، المسيح وُلد في مذود، وملك على خشبة (مز٩٥ بحسب الترجمة القبطية). وكلنا يعرف كيف ظهر المسيح أول ما ظهر في زي نجار، وكيف رفض دعوة الرئاسة المظهرية أو أي شكل من أشكال السيادة والملوكية الآدمية: «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن **يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً** انصرف أيضاً **إلى الجبل وحده**» (يو٦: ١٥).

وهكذا استبدل السيادة على رقاب الناس من فوق العرش، إلى التسلل لقلوب الرعية من وراء البرية وهدوء الجبل. وعوض تجنيد الجيوش المسلحة وإعداد الأعوان والمعدات لخوض المعارك ضد الرافضين لسلطان مُلكه، ارتأى المسيح أن يسلم ذاته لأيدي أعدائه ويخفض رأسه للضاربين والمستهزئين، ثم يموت طواعية – وهو عالم بقيامته – حتى بموته يحصِّن بني الملكوت ضد الموت، وبقيامته يقيمهم ويحييهم منذ الآن كرعايا للحي إلى أبد الآبدين.

وإن كان العالم قد تباطأ جداً في قبول الإنضواء تحت رعاية هذا

الملكوت، فبسبب هذا الأسلوب الفريد في تكميل تدبير ملكوته – بعد صلبوته – بهذا الهدوء العجيب ومن خلال وجوده المستتر الذي لا تحسه إلا القلوب المفتوحة له!! يدعو بغير قسر، ويلح في الدعوة بغير اضطراب، يُقنِع بالحب فقط وليس بالحجة، يُلزم بالدخول إليه وهو واقف على الباب كمن يستعطف، يقف كملك شامخ والسماء تحت موطئ قدميه، يعرض ملكوته علينا ويطرحه تحت أقدامنا، يُقدِّم نِعَمه ومواهبه ويغدق من ألطافه وإحساناته حتى قبل أن نُسلِّم أنفسنا له، ودون أن نكون مستحقين بعد أن نُدعى له عبيداً، يتودَّد إلينا وكأنما هو في حاجة إلى خلاصنا وسلامنا وسرورنا، ينادي: «إن عطش أحد فليُقبلْ إليَّ ويشرب» (يو٧: ٣٧)، وكأنما هو سبيل أو ساقي مياه على قارعة طريق العالم المعطشة، يقف على باب اللاهين عنه ويقرع عسى يحنُّ إليه قلب أحد فيقوم ويفتح وكأنه يطلب العشاء أو المبيت، وهو إنما يسعى لانتزاعنا من مخابئ الموت وجحور الذئاب. يجوب أطراف الأرض فاتحاً ذراعيه ويقول «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (مت١١: ٢٨)، وصحَّ فيه قول إشعياء النبي: «أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها، ...والرب وضع عليه إثم جميعنا» (إش ٥٣: ٤، ٦).

وهكذا كانت طبيعة المسيح من طبيعة ملكوته: «سلام ومسرة»: «قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مُدخِّنة لا يطفئ» (متى١٢: ٢٠)، وهو هو لا يزال يدعو لملكوته حتى اليوم ويخاطب القلوب بهذا الأسلوب التواضعي الذي يسلب العقل!!

وإن كان قد عثر فيه كثيرون من ذوي العقول المنطقية والقلوب القاسية، فعزاؤنا كما قال هو رداً على سؤال يوحنا المعمدان: «أنت هو

الآتي أم ننتظر آخر؟» فأجاب يسوع: «اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران... أن المساكين يُبشَّرون... وطوبى لمن لا يعثر فيَّ» (مت ١١: ٣-٦). ولكن إن كان الذين يُقبلون على الدعوة هم دائماً قلة، حتى يبدو العالم بهذه النسبة وكأنه في تباعد مستمر عن بلوغ ملكوت الله، إلا أن مَثَل الخميرة الصغيرة التي استطاعت في النهاية أن تخمر العجين كله لا يزال هو أمل الإنجيل في إتيان ملكوت الله بصورة محققة وكاملة، حتى أنه لا يحق لنا أن نرضى بأقل منها، فالعجين لابد أن يخضع في النهاية لسلطان الخميرة الصغيرة طالما الخميرة طاهرة وجادة في عملها الهادئ في الخفاء!!

المواجهة بين ملكوت الإنسان وملكوت الله بلغت ذروتها:

منذ فجر التاريخ الحضاري حتى اليوم والفلاسفة والسياسيون يجتهدون غاية الجهد ليصنعوا من البشرية الممزقة وحدة بأي صورة وبأي حال، ولكن باءت كل اجتهاداتهم بالفشل، من أفلاطون لهتلر لموسوليني لكارل ماركس، وهي خلاصة التجارب التي مر فيها العالم حتى اليوم.

فالأول رأى في الفلسفة الملاذ الوحيد لحكومة جمهورية عادلة حكيمة تسوي خلافات البلاد والممالك والأجناس بالعقل، فإذ بالفلسفة تنقسم على ذاتها وتنتهي إلى نظريات تلغي الواحدة منها الأخرى؛ وإذ يتشيع لها الإنسان ينقسم بانقسامها وينهدم بانهدامها، وتقوم مدارس وتموت مدارس والعالم كما هو يزداد تمزقاً من جيل إلى جيل على مرأى من الفلسفة والفلاسفة.

والثاني وهو هتلر، رأى في نقاوة الدم وأصالة العرق ملاذاً لوحدة بشرية فائقة متعالية، إذا اتحدت الأرض كلها، فتصبح الأرض وحدة

محكومة لوحدة حاكمة تخضع لها وتتعبد. وباءت هذه المحاولة الأخرى بالفشل ومات صاحبها منتحراً وتمزقت بلده إلى نصفين، بعد أن أذاق الدنيا ويلات حرب ضروس.

الثالث وهو موسوليني، رأى في إقامة الوحدة القومية داخل الدولة على أساس الوطنية التعصبية الملتهبة والمترابطة (الفاشية)، الملاذ الوحيد لحكم العالم بأسره وتوحيد قواه. وهذا الآخر باء بالفشل ومات مشنوقاً بعد أن عانت بلاده بسببه الهزء والسخرية.

والرابع وهو كارل ماركس، رأى أن وحدة البشرية لا تقوم إلا بتوحيد النظام الاقتصادي في العالم بأسره، فالاقتصاد وحده هو المسئول عن تمزق العالم وتطاحنه، ولا سبيل إلى هذه الوحدة الشاملة إلا بحرب الطبقات حتى تتصفى جميعها ولا يبقى إلا طبقة الرفاق العاملين التي بوسعها أن تحكم كل دولة وبالتالي كل العالم. وهذه الأخيرة وإن كانت قد نجحت في تطبيقاتها الأولية إلا أنها تعثرت في الطريق ثم وقفت محاصرة ففقدت قدرتها على الشمول، وهل يمكن أن ينطفئ روح الله في العالم تحت وطأة نظام اقتصادي؟

هذه هي المحاولات الأربع الكبرى التي عانى منها العالم في سبيل إقامة وحدة مزعومة لم يبلغ شيئاً منها، بل على النقيض كانت نتائج كل منها مزيداً من التمزق ثم مزيداً من اليأس. ولو لاحظنا طبيعة هذه المحاولات نجد أن **الأولى** قامت على حكمة **"العقل"** (الفلسفة)، **والثانية** قامت على نقاوة **"الدم"** (الجنس)، **والثالثة** قامت على قداسة **"التراب"** (الوطن)، **والرابعة** قامت على تنظيم **"المال"** (الاقتصاد).

ولكن بمزيد من التعمق والفحص نجد أن هذه الأربعة **العقل، والدم، والتراب، والمال،** التي لجأ إليها العالم كواسطة لترابطه وتوحيده هي بعينها التي كانت ولا تزال أسباب تمزيقه وعلة حروبه ونزاعاته التي لا تنتهي.

وهكذا ثبت فشل حكمة الإنسان، وادعاء نقاوة دمه، وتوهُّم قدسية ترابه، واتكاله على نظام اقتصاده.

وفي مواجهة هذا الفشل المريع الذي يعانيه العالم اليوم يقف ملكوت الله الذي يباشره المسيح منذ ميلاده وحتى اليوم وحدة واحدة تملأ الأرض والسماء في كنيسة عظمى منظورة وغير منظورة مجاهدة ومنتصرة، وإن كانت تبدو نسبتها ضئيلة في كل جيل فهي بتجميع الأجيال شيء هائل لا يستطيع العدد أن يحصره ألوف ألوف وربوات ربوات.

ولكن ذلك لا يرضي قلوبنا ولا يريح ضمائرنا، فحالة العالم اليوم لا تجعل لبني الملكوت راحة على الإطلاق. العالم يتمزق أمام أعيننا بصورة مرعبة لم يحدث لها مثيل من قبل. فأموال العالم تتكدس لشراء الأسلحة في كل مكان، في كل دولة، والبلاد تجوع والجيوش مطهمة بالحديد والنار، الحرب أصبحت أقرب معقولية من السلم لدى كل دولة وفي فكر كل سياسي، السلام أو الدعوة إلى السلام أصبحت نغمة التضليل، **الحرب من أجل السلم** هي آخر موضة لدى السياسيين. فإذا تركنا الحروب وأخبارها واحتمالاتها لنفحص حالة العالم روحياً واجتماعياً، نرى العالم يجري في طريق آخر للموت والهلاك الأبدي أكثر رعباً من الحروب وويلاتها، فالانحلال الخلقي والإباحية الجنسية والإدمان على

المخدرات يسود العالم كله، وقد أصاب قلبه في الصميم، أصاب الشباب، وتعداه إلى صبية المدارس، ففي المدارس الابتدائية في النرويج عندما يفتشون الصبيان قبل دخولهم الفصول كل يوم يعثرون على نسبة عالية جداً من الأولاد يحملون المخدرات في حقائبهم!! هذا بالإضافة إلى نسبة الجرائم التي أصبحت تهدد أمن العالم أكثر من الحروب وتقلق بال الدولة والمواطنين معاً على الدوام. فلو أضفنا إلى ذلك مشاكل البطالة في العالم ومشاكل الطلاق يبدو لنا العالم على حقيقته بصورته الجريحة النازفة.

حالة العالم اليوم أمام بني الملكوت هي تماماً حالة الابن الأصغر، في مَثَل المسيح، الذي أخذ ميراثه كله وذهب وبذَّره بعَيْش مسرف في كورة الضلال حتى أُعيي واعتاز وأكل طعام الخنازير. العالم هجر الله وابتعد عنه بعيداً وبذَّر كنوزه ومدخراته ومواهبه بعيش مسرف حتى أُعيي واعتاز ولم يعد يحسبه عاراً أن يأكل أكل الخنازير ويحيا حياتها.

الابن الأصغر سئم الحياة الرتيبة في بيت أبيه وسئم نصائح أبيه وسئم السلام والهدوء والبركة واللقمة الحلال، سئم عِشْرة الابن الأكبر، سئم كل شيء فخرج يطلب الحرية، الحرية في كل شيء فوقع في حضن الزواني وأضاع ماله وقوته، هذا هو عالم اليوم فقد سئم صوت الله وبيت الله، سئم السلام في حضن الآب السماوي، سئم عشرة الأتقياء والتقليديين، وخرج يطلب الحرية في ميدان العقل والفن والمرح، فبذَّر كل مدخراته التقليدية وفقد رزانته وانحلت قواه وهو الآن يسير بقدمين مسرعتين نحو الهلاك، ولكنه يرفع بصره ويمد يديه لبني الملكوت كالرجل المكدوني الذي ظهر لبولس الرسول في الرؤيا ممثلاً العالم الضال قائلاً:

أقدم إلينا وأعنا!!

التطلع إلى وحدة الإنسان من جديد أصبحت أكثر من أمنية، أكثر من أمل، هي رجاء وأكثر من رجاء، هي توسل وإلحاح، لقد جرب الإنسان كل شيء في سبيل وحدة البشرية وسلامها وإعادة علائق المودة والسرور بين الناس، جرب الحكمة الفلسفية، وجرب العلم، جرب السياسة، وللأسف كلها زادته انقساماً على انقسام وتباعداً وفُرقة.

لم يعد أمام الأرض كلها إلا أن تتطلع نحو الله تقوم وتلتجئ إلى أبوته مرة أخرى، تطلب صفحه ودخول ملكوته، ففيه وحده الملاذ الأخير لوحدة الإنسان وسلامه وسروره.

العالم اليوم جائع أشد الجوع إلى من يملأ قلبه لا بطنه، إلى من يملأ روحه لا عقله، إلى من يمنحه سلام الروح لا تسلية العينين والأذنين ونزهة الجسد. الجوع واحد في الأرض كلها وهو شديد، جوع ليس إلى الخبز بل إلى كلمة الله المحيية. حنين العودة إلى الله يجتاح قلب العالم كله وضميره، فالعالم كله اليوم محسوب أنه لاجئ ومهاجر يعيش خارج وطنه الحقيقي!!

الإحساس بالفراغ في علاقات الشعوب والأُسر والأفراد أصبح مرعباً للنفس البشرية وأشد ضغطاً على أرواح الناس من الموت ذاته، فكثيرون يرتضون الموت، وبأيديهم، تخلصاً من القلق الذي أصاب أرواحهم من جراء الفراغ الذي يعيشونه!

العالم كله يشعر الآن أنه لا فائدة من كل الحلول والمؤتمرات والمشاورات والمعاهدات، فمعاهدات الحرب أكثر من معاهدات السلم،

والقنبلة والصاروخ أصبحت أكثر احتراماً من كلمات الرجال.

الحاجة أصبحت واضحة أشد الوضوح إلى من يستطيع أن يجمع شمل الأمم والشعوب والجماعات، واحد له من القدرة والحب واتساع القلب ما يؤهله إلى مصالحة الألوان والأجناس والمذاهب، يصالح الإنسان بأخيه الإنسان، والإنسان بنفسه، والإنسان بالله. واحد يبذل نفسه عن الجميع ليصالح المتخاصمين ويجمع المتفرقين ويُوحِّد الكل في نفسه ليقدم البشرية كلها كأسرة متحابة إلى الآب الذي هي منه وله.

إن تسبحة الملائكة وهي تعلن بداية تأسيس مُلك الله على الأرض يوم ميلاد المسيح قد أعطت الأرض كلها إشارة البدء للرجوع إلى حضن الآب السماوي، أنما أرادت وحيثما شاءت، وهي هي لا تزال تُعتبر إشارة العودة مهما طال الضلال، فملكوت السلام وملكوت المسرة بين الناس قائم على الأرض حتى اليوم وهذه الساعة يدعو كل المتعبين والثقيلي الأحمال لإلقاء أحمالهم وهمومهم على المسيح الذي جاء إلى عالمنا خصيصاً ليحمل همومنا وإخفاقاتنا وكل حماقتنا. فهو الفادي الوحيد نور الأمم ورجاء كل الشعوب وأمل مساكين الأرض ومنبوذيها وكل المظلومين واللاجئين والمطرودين. وهو الوحيد الذي ينعقد عليه أمل العالم الأخير، ليحكم الأرض كلها بالعدل والقسطاس في وحدة تفوق قدرات الإنسان وحكمته وكل إمكانياته.

التوبة الجماعية والاستعداد لقبول تسبحة الملائكة من جديد:

إنه الرجاء الأخير والرجاء الوحيد والأعظم، فملكوت الله حقيقة قائمة وموجودة على الأرض منذ أن رنت أصداء تسبحة الميلاد بين السماء

والأرض حتى اليوم وإلى آخر لحظة من حياة الناس على الأرض. والملكوت يوجد آنما وُجدت التوبة وحيثما كانت، من أطراف الأرض إلى أطرافها، فبداية الملكوت توجد توبة وبداية التوبة ملكوت، وحينما بدأ المسيح بشارته أول ما بدأ، بدأ هكذا: «منذ ذلك الزمان **ابتدأ يسوع يكرز** ويقول توبوا لأنه **قد اقترب ملكوت السموات**» (مت٤: ١٧).

والدعوة للتوبة هنا، كما يلاحظ القارئ، جماعية قبل أن تكون فردية، والآن أيضاً الحاجة الوحيدة التي نكاد نلمسها بأيدينا هي حاجة إلى توبة جماعية. فالضلالة تجاوزت ضلالة الأفراد، لقد صارت ضلالة جماعات وبلاد وأمم وشعوب، لذلك لزم أن تكون التوبة فوق مستوى الفرد وإن كانت تحتويه بالضرورة!

لقد أعطانا الكتاب المقدس مثلاً لتوبة مدينة بأسرها، نينوى المدينة العظمى تابت كلها عندما واجهت إنذاراً من الله بخرابها. لبست المسوح كلها جالسة في التراب صائمة، من ملكها الجالس على العرش إلى الطفل الرضيع على صدر أمه حتى البهيمة في الدار رفع عنها الطعام والماء، التذلل في نينوى كان جماعياً، والملك كان نموذجاً يُحتذى: «قام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطى بمسح وجلس على الرماد» (يونان٣: ٦) فعفا الله عن نينوى!!

وعلى مثال نينوى تماماً وقف المسيح مطالباً كورزين وكفرناحوم بتوبة مماثلة، استجابة لكرازته التي صنعها فيها، وإلا فالقصاص المحتوم الذي نالته سدوم وعمورة هو في انتظارها!! إنه ليكاد الإنسان الخائف من الله أن يسمع نفس الإنذار موجهاً للعالم بمدنه الشامخة وصواريخه التي

ارتفعت إلى عنان السماء، فصوت الإنجيل بلغ أقطار المسكونة كلها وقد آن أوان المحاسبة.

لقد بكى المسيح على أورشليم لما رفضت كرازته لأنه كان ينتظر توبتها، لو هي أدركت زمان افتقادها. فهل يدرك العالم زمان افتقاده؟ ما أظن ذلك إلا لو بكى بنو الملكوت وتذللوا وتابوا وصاموا عوض العالم الزائغ عن خلاصه.

لقد وقف إبراهيم أبو الآباء يوماً يحاجج الله بخصوص اعتزامه قلْب سدوم وعمورة وحرقها بالنار: «أديَّان الأرض كلها لا يصنع عدلاً؟؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة!! أفتُهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين؟؟» (سفر التكوين ١٨). ولدهشة إبراهيم أنه لم يكن في تخوم سدوم وعمورة كلها لا خمسين باراً ولا عشرين ولا عشرة!! وهو آخر رقم ارتضى الله به لكي من أجله، أي من أجل عشرة أبرار فقط، يعفى الله عن كل سدوم وعمورة إن وُجدوا!! فهل يوجد الآن في العالم من يصلي ويشفع ويتوب ويندم عوض الذين لا يعرفون الصلاة أو التوبة؟؟

بطرس الرسول يوضح في بداية كرازته أهمية توبة الجماعة التي جهلت خطاياها، فكان لوعظه أثر بليغ في نفوس الشعب: «والآن أيها الإخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضاً. وأمَّا الله فما سبق وأنبأ به بأفواه جميع أنبيائه أن يتألم المسيح قد تممه هكذا. فتوبوا وارجعوا لتُمحَى خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب. ويرسل يسوع المسيح المبشر به لكم قبل. الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة ردِّ كلِ شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدَّهر.» (أع٣: ١٧-٢١)

ونحن أيها القارئ العزيز محتاجون في هذه الأيام إلى صوت بطرس الرسول ليوقظ ضمائرنا كجماعة نصلي ونتوب ونتذلل أمام الله من أجل أنفسنا ومن أجل العالم الذي يسير في طريق الهلاك.

فلنذكر جميعاً شباب العالم وشاباته الذين أخذوا دور الابن الأصغر في مَثَل الإنجيل وخرجوا من بيت الآب السماوي يرعون مع الخنازير ويبيتون على جحور الذئاب، ويترنمون ترنيمة الموت وهم سائرون في طريق الهلاك.

فلنذكر جميعاً كيف اختزنت الدول الكبرى ملايين الملايين من أطنان أسلحة الخراب والدمار في انتظار صوت الشيطان ببدء يوم الخراب العظيم.

فلنذكر جميعاً ملايين العمال الذين يواجهون البطالة والجوع الذي يهدد العالم.

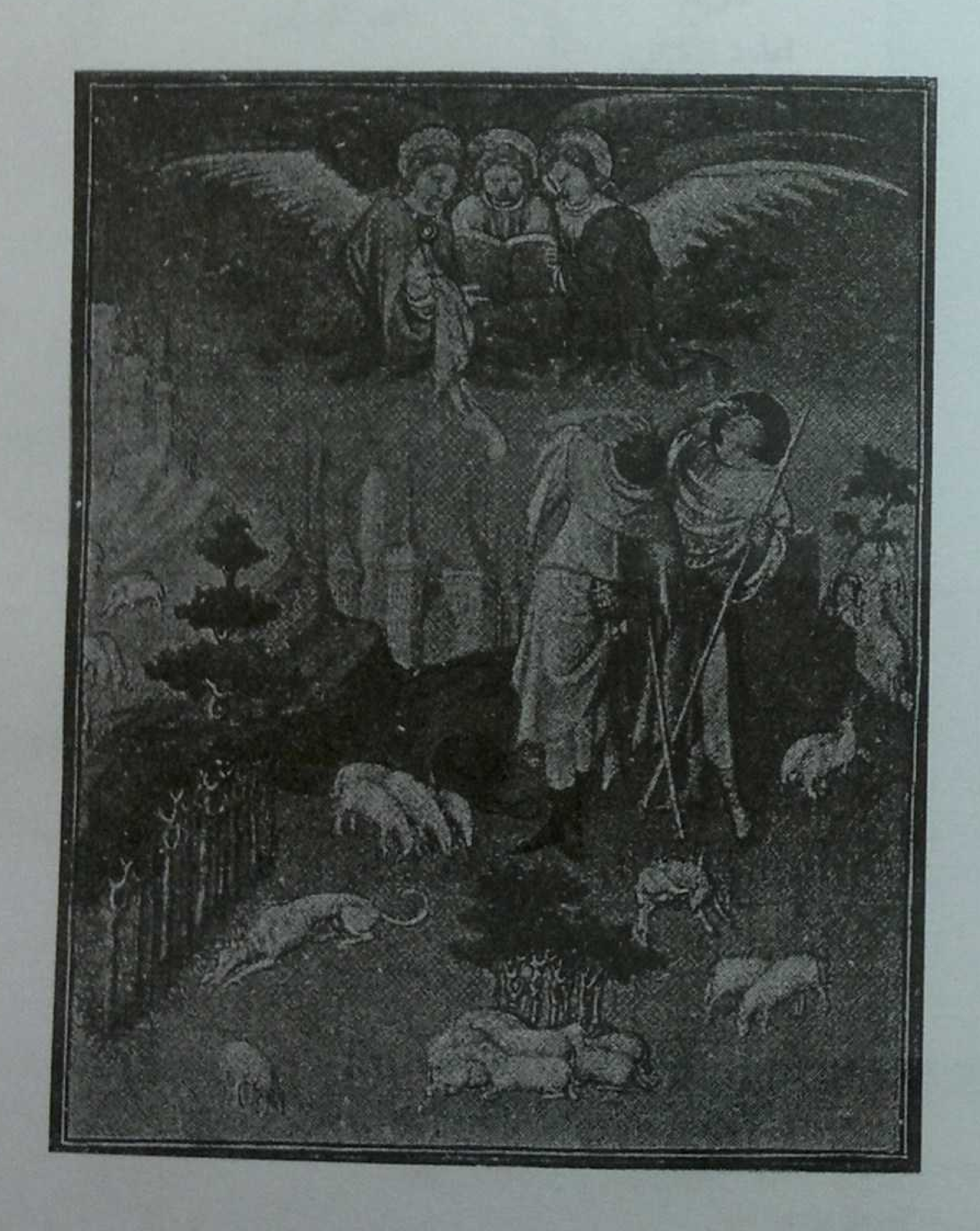
فلنذكر جميعاً الشعوب الفقيرة التي لا يحتكم الفرد فيها على رغيف عيش واحد كل يوم!!

فإذا تذكرنا هذا، فهلم إلى توبة جماعية نبدأها بأنفسنا، ولتكن توبة كل جماعة على حدتها. وأولاً الجماعة المحسوبة أنها أهل بيت الله، جماعة الأساقفة على حدتها، وجماعة الكهنة على حدتها، وجماعة الشمامسة على حدتها، وجماعة الخدام على حدتها، ثم جماعة الشعب عشائر عشائر وفئات فئات وبلاداً بلاداً؛ كل جماعة تنذر نذراً وتصوم صوماً تلبس فيه عوض المسوح لباس حشمة، وتسير بانكسار وتصلي بانسحاق تطلب الرحمة تائبة عن نفسها متذللة من أجل العالم، حتى تعود أزمنة الفرج التي تكلم عنها بطرس الرسول والتي فيها سيأتي الرب: «لتمحى خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب. **ويُرسِل (الآب) لكم يسوع**

المبشَّر به لكم قبل» (أع٣: ١٧-٢١).

وهكذا نواجه مجيئاً آخر للرب يصحبه الفرج من الضيقة العظمى التي يعانيها العالم، وبمجيء الرب تظهر حتماً وبالضرورة جوقات الملائكة عينها مرنمة من جديد ترنيمة الملكوت الآتي ويسمع في الأرض هتافها مرة أخرى:

«المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة



يُطلب من:
دار مجلة مـــــرقس
القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من مكتبة الدير
و من خلال موقع الدير :
www.stmacariusmonastery.org